مشاهير العرب

٦

خالد بن الوليد

الدكتور جمال الدين الرمادي

دار المعارف بمصر

خالد بن الوليد

مشاهير العرب
(٦)

خالد بن الوليد

بقلم
الدكتور جمال الدين الرمادى

الطبعة السادسة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

خالد بن الوليد

كان فتى قوى الجانب ، موفور المهابة ، عزيز الكلمة ، مرفوع الاسم ، فى الجاهلية قبل الإسلام ، وكان ينتمى إلى قبيلة قريش أرفع قبائل العرب منزلة ، وأعلاهم مقاماً ، فليس لأحد من العرب مثل منزلتهم ، « ولا يعرف العرب لأحد مثل ما يعرف لهم » . وكانت عشيرته تسمى بنى مخزوم وهى إحدى بطون قريش ، وكانت إليهم القبة والأعنة ، أما القبة فكانوا يضربونها يجمعون فيها ما يجهز به الجيش ، وأما الأعنة فكانوا المقدمين على خيول قريش فى الحرب .

وكان خالد بن الوليد فارس بنى مخزوم المحجَّل ، وبطلها فى ساحة القتال وحومة الوغى ، لما عرف عنه من بسالة فائقة ، وشجاعة خارقة سار بسيرتها الركبان .

وكان والده يسمى الوليد بن المغيرة ، وكان رجلا حصيف العقل راجح الفكر ، وكان أحد حكام قريش فى الجاهلية ، جلس يفصل بين قومه فى فناء الكعبة ، وادعى الرياسة بعد موت عبد المطلب ، كما حرم على نفسه الخمر قبل الإسلام ، وأمر بقطع اليد فى السرقة قبل أن تنزل الشرائع السماوية على الناس فى الإسلام .

وكان الوليد بن المغيرة رجلاأديبًا يتذوق البلاغة ويدرك مواطن البيان ، حدث أن سمع النبي يردد شيئًا من القرآن الكريم فأخذته بلاغته ، وبهرته صياغته ، وأدهشته حكمته ، فذهب إلى قومه يقول : لقد سمعت منه كلامًا ما هو كلام الإنس ، ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه . فقالت قريش : صبأ الوليد ! فقال ابن أخيه أبو جهل :

— أنا أكفيكموه !

فقعد إليه حزينًا وكلّمه بما أثاره ، وقام وناداهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق ؟ وتقولون إنه كاهن ، فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً ؟ فقالوا : لا ، فقال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟

ففرح القوم بقوله هذا وتفرقوا عنه متعجبين منه .

هكذا كان والده يدرك بلاغة القرآن ، وتسحره آياته ، فيذهب فى ذلك مذاهب شتى ، ولعل الإيمان لم يكن قد دخل إلى قلبه ، وهدى بصره ، وجلا بصيرته ، فإذا به مشتت الفكر ، متقلب الرأى ، موزع الإحساس . ولكن قريشًا كانت تخاف أن يعتنق الإسلام فتتبعه قريش كلها ، وهذا يدل على علو مكانته وشرفه بين قومه ، أما والدته فكانت لبابة الصغرى ، وهى أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وأخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه

وسلم . ومن ثم كان نسبه إلى الرسول عظيماً ، وكانت صلته بالنبى قوية بعدما اعتنق الإسلام .

خالد فى أحد :

أما بعد ظهور الإسلام فقد اشترك خالد بن الوليد فى كثير من الغزوات ضد الرسول الكريم ، فخاض غمار بدر مع المشركين ، غير أن الدائرة دارت عليهم ، وتفرقت صفوفهم وانهزمت كتائبهم ، وفرت فلولهم برغم ما أبداه خالد من بسالة فى المعركة ، وصمود أمام جيش المسلمين .

ثم لم يلبث بعد ذلك أن اشترك فى معركة أحد ، وهب مع قريش ليثأر من هزيمة بدر ، محاولا الانقضاض على جيوش المسلمين ، وقد جعلت قريش خالد بن الوليد على الميمنة ، وعكرمة بن أبى جهل على الميسرة ، ودفعت اللواء إلى عبد العزى طلحة بن أبى طلحة .

واجتمع حول أبى سفيان بن حرب أحد أقطاب قريش ثلاثة آلاف من قريش والأحابيش ، وهم طائفة الجند المرتزقة ، وعرب كنانة ، وتهامة ، فخرج بهم يريد المدينة ، واصطحب القيان ، ومعهن المعازف والخمر ، وخرج معه نساء كبرائهم إثارة لحماستهم .

ولما سمع محمد بقدوم جحافل قريش ، أخذ يشاور أصحابه فى الخطة المقبلة ، فأشار عليهم بعضهم بالخروج لملاقاة الأعداء ، فى حين أشار عليه البعض الآخر بالبقاء فى المدينة لمقارعتهم السيف بالسيف ، والنصال

بالنصال ، غير أنه فى النهاية ، انصاع لرأى الفريق الأول ، وآثر الخروج لملاقاة الأعداء ، واستعد للقتال وقال : « ما كان لنبي لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه » .

نزل الرسول وأصحابه عند جبل أحد ، وعسكر عند سفحه الذى يواجه المدينة ، وينحدر إلى بطن الوادى الذى عسكرت فيه قريش ، فاحتمى الرسول بالجبل ، وجعل الرماة يقفون فى أعلاه يتحفزون للمعركة ، وليحموا ظهر الجيش ، وأوصاهم بألا يبرحوا مكانهم سواء أكان لهم النصر أم حلت بهم الهزيمة ، ثم استعرض الرسول الجيش ، وألهب حماسة الجند ، وشجعهم على الاستماتة فى الجهاد ، حتى يظفروا بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

ودوى صوت البوق يرن فى الفضاء العريض ، وانتشر فى الجو غبار كثيف ، ونقع عظيم ، وتلألأت السيوف فى وسط هذا القتام تحت وهج الشمس الساطعة ، وابتدأت المعركة بالمبارزة بين المشركين والمسلمين ، واستطاع على بن أبى طالب أن يهزم طلحة بن أبى طلحة ، وهو أحد فرسان قريش البارزين ، فثارت ثائرة قريش وعولت على الانتقام ، وكان على رأس المشركين أبو سفيان بن حرب ، كما كان على رأس الخيل خالد بن الوليد .

واشتد وطيس القتال بين الفريقين ، وارتد جيش قريش مدحوراً ، فلم يكد يعرف المسلمون تقهقر المشركين حتى ترك الرماة أماكنهم التى

أمرهم الرسول بالبقاء فيها ، وهرعوا يجمعون الأسلاب والغنائم ، وحينئذ انتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة ، واستدار خلف ظهور المسلمين وأعمل الرماح فيهم ، فاضطربت صفوفهم وتفرقت جهودهم ، وكادت السهام والنبال تصيب الرسول الكريم ، بل أشيع بين الناس أنه قتل ، فدبت البلبلة فى النفوس ، ثم نهض كعب بن مالك الأنصارى يهتف بهم بأن محمداً على قيد الحياة ، لم تدركه المنية ، فأمره الرسول بالسكوت حتى يصرف المشركين عنه .

وهكذا كان الفضل يرجع إلى خالد بن الوليد فى الاستدارة حول المسلمين وهزيمتهم فى أحد ، وإيمانه بأن الحرب خدعة ، وانتهازه الفرصة الملائمة للهجوم بعد ما عصى الرماة أمر الرسول بالبقاء فى أماكنهم صامدين .

غير أن المشركين أظهروا فى هذه المعركة وحشية لن ينساها التاريخ ، إذ استطاع غلام حبشى يقال له وحشى مولى مطعم بن جبير أن يصيب من حمزة عم الرسول مقتلا ، وهو يقاتل سباعاً من بنى عبد العزى ، فأرداه على الأرض قتيلا غيلة وغدراً ، ولم يقف الأمر عند ذلك بل إن هنداً بنت عتبة زوجة أبى سفيان بن حرب بقرت بطن حمزة بن عبد المطلب ، وأخذت كبده فلاكتها ، حتى إذا عجزت عن أكلها لفظتها .

ولا يحدثنا الرواة شيئاً عن موقف خالد من هذه الوحشية السافرة إنما يحدثنا الرواة عن مواقف أخرى من مواقفه ، كموقفه فى غزوة الخندق أو الأحزاب .

خالد فى غزوة الخندق :

ثارت قريش بعد هزيمة المسلمين فى أحد ، وظنت أنها قد عجمت عود المسلمين فلن تقوم لهم بعد ذلك قيامة ! فتعددت هجمات المشركين عليهم ، ووفد على رسول الله قوم من عضل والقارة فقالوا : « يارسول الله إن فينا إسلامًا وخيراً ، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا فى الدين ويعلموننا شرائع الإسلام » . فبعث رسول الله ستة من أصحابه ، غير أنهم غدروا بهم عند « الرجيع » وانقضوا عليهم بسيوفهم ، وما زالوا يدافعون عن أنفسهم ، حتى قتل بعضهم ، وأسر البعض الآخر ، فكانت نهايته القتل ، فكان ذلك سبب غزوة بنى لحيان .

وغدر المشركون بعد ذلك بنفر من المسلمين عند بئر معونة . وكانوا من أشهر القراء والحفاظ . فتفاقم موقف المشركين ، وأخذ الموقف ينذر بالخطر وعظائم الأمور ، وزاد من حرج الموقف أن فكر بنو النضير من يهود المدينة فى قتل محمد ، وإلقاء الحجارة عليه ، بيد أن الله تعالى ألهمه بما يتهيأ اليهود لفعله ، فسار إليهم ، وحاصرهم فى عقر ديارهم ، وأمر بقطع النخيل وتحريقه . فذهبوا إليه صاغرين مستسلمين وطلبوا منه أن يجليهم عن ديارهم ويكف عن دمائهم على أن يأخذوا معهم ما تحمل الإبل من المال إلا الدروع ، فأجابهم الرسول إلى طلبهم .

وتجمعت الأحزاب على أثر ذلك لمحاربة المسلمين ، واشتدت شوكتهم

فأشار سلمان الفارسى على الرسول بحفر خندق حول المدينة ، على أن يتحصن المسلمون داخلها ، وقال مخاطباً إياه : « يا رسول الله . إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا عليه » .

ولكن المشركين حاولوا أن يخترقوا هذا الخندق بكل وسيلة مستطاعة أو غير مستطاعة حتى ينالوا من المسلمين ، وكان خالد بن الوليد وقتذاك تحدثه نفسه باقتحام هذا الخندق ، فكان دائم التطواف حوله عله يستطيع العثور على ثغرة يشن منها هجومه ، أو يظفر فيها بغفلة كتلك التى حدثت فى « أحد » فنال من المسلمين .

واشتد أتون المعركة بين الفريقين وانتهت بهزيمة المشركين وهبت على الأحزاب ريح صرصر عاتية ، جعلت تكفأ قدورهم ، وتنزع خيامهم ، وترغمهم على الرحيل . . .

فرجعوا يجرون أذيال الإخفاق بيد أنهم شاءوا أن يحموا ظهورهم مخافة أن ينقض عليهم المسلمون فى انسحابهم ، ففوضوا إلى خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص هذه المهمة ، فقاما بها خير قيام ، بدون خوف أو وجل ، وبدون رهبة أو فزع .

وليس من شك فى أن اختياره للقيام بهذا العمل كان دليلا على علو منزلته بين قومه ، وشجاعته وفروسيته ، التى يستعان بها فى أحرج الأوقات وأحلك الأزمات . مما ستثبت الأيام صحته ، وتؤكد سلامته .

خالد فى الحديبية :

بينما كان المسلمون مجتمعين فى ساحة المسجد يؤدون فريضة الله تعالى ، إذ أنبأهم النبى بما أثلج صدورهم ، وشرح قلوبهم ، وسر نفوسهم . أنبأهم بأنه رأى فى منامه أنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون ، فدهشوا لهذا النبأ أيما دهشة ، وسألوا الرسول عن كيفية تنفيذه ، وهل يتم بالسلاح أم السلام ؟ ولم يلبث المسلمون أن عرفوا نية الرسول عندما جاء شهر ذو القعدة الحرام ، وأرسل رسله إلى القبائل من غير المسلمين يدعوهم إلى مشاركته فى الخروج إلى بيت الله تعالى غير محاربين أو مقاتلين ، وساق محمد معه الهدى سبعين بدنة . وأحرم بالعمرة حتى يعرف الناس أنه لا ينوى شراً ، ولا يعتزم قتالا إنما يبتغى مرضاة الله عز وجل . ولما بلغ المسلمون الحديبية بركت ناقة الرسول (القصواء) وظن المسلمون أن الإعياء قد أخذ منها كل مأخذ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما حبسها حابس الفيل عن مكة ، لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها . . . »

وفى هذه الأثناء كان خالد بن الوليد يتحين الفرص للانقضاض على جيش المسلمين ، وقدمته قريش على أعنة خيلها إلى « كراع الغميم » وهو موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة وكان بصحبته مائتا فارس

يتحرقون تحرقًا لمواقفة المسلمين ، ودنا خالد بن الوليد بخيله حتى نظر إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر رسول الله عباد بن بشر فتقدم فى خيله فأقام بإزائه .

وعندما وجد خالد بن الوليد المسلمين قد فرغوا من صلاتهم ندم على ذلك أشد الندم ، وعلم أنه شن هجومه فى فرصة غير سانحة ، ووقت غير ملائم ، واستعد لمنازلة المسلمين مرة أخرى عندما ينشغلون فى صلاتهم فيأخذهم على حين غرة . غير أن النبى صلى بأصحابه وقتذاك صلاة الخوف ، وبث الحماة لحراسة صفوفه ففوتوا الفرصة على خالد بن الوليد . ولم يتمكن من استئناف الهجوم على جيش المسلمين .

ولولا أن صلح الحديبية قطع دابر الفتنة بين الفريقين ولو إلى حين ، لتابع خالد بن الوليد هجماته على المسلمين ، وعندما علم أن هذا الصلح ينص على دخول الرسول فى العام التالى للحج غضب وثار ، وأقسم أن يخرج هو من مكة حين دخول المسلمين حتى لا يراهم أو يلتقى بهم .

إسلام خالد بن الوليد :

ولكن هذه الشدة على الإسلام ، وهذا البغض الشديد للإسلام ، سرعان ما انقلبا إلى عقيدة وإيمان ، وسرعان ما وجدنا خالد بن الوليد يذهب إلى محمد ليشهر إسلامه ، حين تبين له الحق ، واتضح له الصواب من الضلال ، واستبان له النور من الظلمة ، وقد روى كثير من المؤرخين

قصة إسلامه كما رواها خالد بنفسه فقال :

« لما أراد الله بى من الخير ما أراد ، قذف فى قلبى الإسلام ، وحضرنى رشدى ، وقلت قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد صلى الله عليه وسلم فليس موطن أشهده إلا وانصرف ، وإنى أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء وأن محمداً سيظهر ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية ، خرجت فى خيل قريش ، فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه بعسفان ، فقمت بإزائه ، وتعرضت له فصلى بأصحابه الظهر إماماً ، فهممنا أن نغير عليه ، فلم يعزم لنا ، وكان فيه خيره ، فاطلع على ما فى أنفسنا من الهجوم به ، فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منى موقعاً ، وقلت « الرجل ممنوع » وافترقنا ، وعدل عن سنن خيلنا وأخذ ذات اليمين ، فلما صالح قريشاً بالحديبية قلت فى نفسى « أى شىء بقى ؟ أين المذهب ؟ إلى النجاشى ؟ فقد اتبع محمداً وأصحابه آمنون عنده ، فأخرج إلى هرقل ، فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية ؟ أفأقيم فى عجم ، أو أقيم فى دارى فيمن بقى ؟ وبينما أنا كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فى عمرة القضاء وتغيبت فلم أشهد دخوله .

وكان أخى الوليد قد دخل مع النبى صلى الله عليه وسلم فى تلك العمرة ، فطلبنى فلم يجدنى ، فكتب إلىّ كتاباً فإذا فيه (بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام ، وعقلك

عقلك ! ومثل الإسلام يجهله أحد ؟ وقد سألنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " أين خالد ؟ " فقلت : يأتى الله به ، فقال : ما مثل خالد يجهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له ، ولقدمناه على غيره ، فاستدرك يا أخى ما فاتك فقد فاتتك مواطن صالحة . . .) .

فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج ، وزادنى رغبة فى الإسلام ، وسرتنى مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأيت فى النوم كأنى من بلاد ضيقة جدبة ، فخرجت إلى بلد أخضر واسع فقلت : إن هذه الرؤيا حق : فلما قدمت المدينة قلت : لأذكرها إلى أبى بكر . فذكرتها فقال : هو مخرجك الذى هداك للإسلام ، والضيق الذى كنت فيه الشرك .

فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : من أصاحب إلى محمد ؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت : أما ترى ما نحن فيه ! وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا عليه فاتبعناه ، فإن شرف محمد شرف لنا .

فأبى علىّ أشد الإباء وقال : لو لم يبق غيرى من قريش ما أتبعه أبداً . فافترقنا وقلت : هذا الرجل موتور يطلب وتراً ، قتل أبوه ، وأخوه ببدر .

ولقيت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان ، وقال لى مثل ما قال صفوان فقلت له : فاطو ما ذكرت لك . قال : لا أذكره .

وخرجت إلى منزلى ، فأمرت براحلتى فخرجت بها إلى أن لقيت عثمان بن طلحة فقلت : إن هذا لى صديق ، فلو ذكرت له ما أرجو ، ثم ذكرت من قتل من آبائه ، فكرهت أن أذكره ، ثم قلت : وما علىّ وأنا راحل من ساعتى ، فذكرت له ما صار الأمر إليه ، فقلت : إنما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر لو صب فيه ذنوب من ماء خرج ، وقلت له نحواً مما قلت لصاحبى ، فأسرع الإجابة ، وقلت له : إنى غدوت اليوم ، وأنا أريد أن أغدو ، وهذه راحلتى (بفج) مناخة ، قال : فاتعدت أنا وهو (يأجج) إن سبقنى أقام ، وإن سبقته أقمت عليه ، قال ، فأدلجنا سحراً فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة فنجد عمرو بن العاص بها ، قال : مرحباً بالقوم ، فقلنا وبك ، فقال : أين مسيركم ؟ فقلنا : وما أخرجك ؟ فقال وما أخرجكم ؟ قلنا الدخول فى الإسلام ، واتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، قال : وذاك الذى أقدمنى ، فاصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة فأنخنا بظهر الحرة ركابنا ، فأخبر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر بنا وقال : (رمتكم مكة بأفلاذ كبدها) فلبست من صالح ثيابى ، وعمدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقينى أخى فقال : أسرع فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبر بك ، فسر بقدومك ، وهو ينتظركم فأسرعنا المشى ، فاطلعت عليه ، فما زال يتبسم إلىّ حتى وقفت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة فردّ علىّ السلام بوجه طلق ، فقلت : إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول

الله ، فقال : تعال ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الحمد لله الذى هداك ، فقد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير) قلت : يا رسول الله إنى قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحق ، فادع الله أن يغفرها لى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الإسلام يجب ما كان قبله) قلت يارسول الله علىّ ذلك . قال : (اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك) قال خالد : وتقدم عثمان وعمرو فبايعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : وكان قدومنا فى صفر سنة ثمان ، قال : والله ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل بى أحداً من أصحابه فيما حزبه » . ثم أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع داره من الدور التى كان وهبها له الحارثة بن النعمان وجعله موضع ثقته .

على أن إسلام خالد كان حادثًا جللا عند قريش ، فنزل عليها نزول الطامة الكبرى إذ كان عونها فى الملمات ، ونصيرها فى الأزمات ، وساعدها فى محاربة المسلمين ، والنيل من محمد وصحبه ، ولم يكد ينتشر بين قريش نبأ إسلام خالد بن الوليد حتى ارتسم الحزن على الوجوه ، وذهب الناس بين مكذب ومصدق ، ومضوا يسعون إلى خالد يلتمسون منه الجواب الشافى ، الذى يقطع دابر الحيرة والشك .

وأتتهم الأنباء من أصحابه أنه ذهب إلى صفوان بن أمية يدعوه إلى الخروج معه إلى الرسول فأبى ، فاتجه إلى عكرمة بن أبى جهل ، وأطلعه

على دخيلة نفسه . وطلب منه مصاحبته ، فقال له عكرمة ، قد صبؤت يا خالد ، فقال له خالد : « لم أصب ولكنى أسلمت » فقال عكرمة : « والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام لأنت ! » فقال خالد : « ولم ؟ » فرد عليه عكرمة : « لأن محمداً وضع شرف أبيك ، وقتل عمك وابن عمك ببدر . فوالله ما كنت لأسلم . ولا أتكلم بكلامك يا خالد ، أما رأيت قريشاً يريدون قتاله » فقال خالد : « هذا أمر الجاهلية وحميتها ولكنى والله أسلمت حين تبين لى الحق » !

واهتزت قريش كلها عندما علمت أن خالد بن الوليد بعث إلى الرسول بأفراس ، ونهض أبو سفيان مزمجراً يضرب الأرض بقدميه ، وبعث إلى خالد يطلبه ويستجلى حقيقة أمره ، ويسأله الحق عما بلغه عنه ، ولما أجابه خالد أنه حق ، غضب وقال : « واللات والعزى ، لو أعلم أن الذى تقول حق لبدأت بك قبل محمد » . فقال خالد : « فوالله إنه لحق على رغم من رغم » .

فاشتد حنق أبى سفيان ، وثارت ثائرته وحجزه عنه عكرمة وكان حاضراً وقال : « مهلا يا أبا سفيان ، فوالله لقد خفت للذى خفت أن أقول مثل ما قال خالد ، وأكون على دينه ، أنتم تقتلون خالداً على رأى رآه ، وهذه قريش كلها تبايعت عليه ! والله لقد خفت ألا يحول الحول ، حتى يتبعه أهل مكة كلهم » .

وأسلم بعد خالد بن الوليد عمرو بن العاص ، وحارس الكعبة ابن

طلحة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وقويت شوكة الإسلام ، ولم يأت عام الفتح إلا وكان الإسلام ينتشر فى شتى البطاح والبقاع . ويلج قلوب آلاف من المسلمين .

سيف الله المسلول :

أعز الله بخالد الإسلام والمسلمين ، وانقلبت شدته فى سبيل الباطل شدة على أعداء الإسلام ، وخصوم المسلمين ، وحدث أن نزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلا ، فجعل الناس يمرون ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من هذا ؟ » فيقول له أبو هريرة : فلان ، حتى مر خالد بن الوليد ، فقال : « من هذا ؟ » . فقال أبو هريرة : « خالد بن الوليد » . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « نعم عبد الله هذا سيف من سيوف الله ! »

ووقع بين خالد بن الوليد وعمار بن ياسر كلام فقال عمار : « لقد هممت ألا أكلمك أبداً » ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « يا خالد مالك ولعمار ، رجل من أهل الجنة ، وقد شهد بدراً » . وقال لعمار « إن خالداً يا عمار سيف من سيوف الله سلّه الله على الكفار » .

هرقل ملك الروم :

أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحارث بن عمير إلى صاحب بُصرى وهى إحدى أعمال دمشق ليدعوه إلى الإسلام ، غير أن المشركين غدروا به وقتلوه ، فصمم الرسول الكريم على تأديب هؤلا الغادرين ، وأرسل سرية إلى مؤتة وهى إحدى قرى البلقاء فى حدود الشام لمنازلتهم ، وهناك التقت كتائب المسلمين مع جموع هرقل من الروم والعرب ، والتقى الجمعان واقتتلا ، وكان زيد بن حارثة يحمل راية المسلمين ، فانقض عليه المشركون من كل جانب ، وأعملوا رماحهم فى جسده ، ومزقوه شر ممزق ، حتى لم يستطع أحد أن يتبين معالم شلو من أشلائه . وقبل أن تسقط الراية من يده تناولها جعفر بن أبى طالب ، وأخذ يدافع دفاع المستميت فى القتال حتى خر فرسه على الأرض ، وهنا أخذت الفرس تجمح وتصهل فعقرها جعفر بسيفه ، وانتفض يتقدم راجلا والسيف فى يده يقطع به رقاب المشركين ، وعلى حين غرة أدركته ضربة سيف فى يمينه وهو يحمل الراية ، فقطعتها ، فمضى يحمل الراية بيساره فى رباطة جأش ، وقوة عزم ، ومتانة أعصاب ، ولم يلبث أن أدركته ضربة سيف أخرى فى يساره ، فمضى يحمل الراية بعضديه ، غير أنه لم يقو على ذلك ، وسقط على الأرض شهيداً .

وحينئذ هرع ابن رواحة ليحمل اللواء من بعده ، وطفق يصيح

بأعوانه ، بيد أن جموع المشركين تكاثرت عليه ، فخر بدوره صريعاً

وعرت الجميع بلبلة واضطراب ، وتلفت الناس يبحثون عن قائد أمين ، وأخذ الراية بعد موت ابن رواحة ، ثابت بن أقرم ، وجعل يصيح : « يا للأنصار ! ! » فجعل الناس يثوبون إليه ، فنظر إليه خالد بن الوليد فقال : خذ اللواء يا أبا سليمان فقال لا آخذه ، أنت أحق به ، لك سن ، وقد شهدت بدراً ، قال ثابت : خذه أيها الرجل ! فوالله ما أخذته إلا لك ، فأنت أعلم بالقتال منى ، وقال ثابت للناس : اصطلحتم على خالد ؟ قالوا : نعم !

وهكذا أمسك خالد بن الوليد بالراية ، ومضى البطل الصنديد على رأس الجيش ، فرفع من روحه المعنوية ، وأحسن توجيهه ، وغير صفوف الجيش ، وجعل المقدمة مكان الساقة ، والساقة مكان المقدمة ، والميمنة مكان الميسرة ، والميسرة مكان الميمنة ، فوقع الكفار فى غلط ، فحسبوا أن لحق المسلمين مدد ، فوقع فى قلوبهم من ذلك الرعب ، فانهزموا .

واستطاع خالد أن ينسحب بجيشه فى حكمة وتؤدة دون أن يلحقه أذى من الأعداء بعدما قاتل قتال الأبطال حتى قال : « لقد اندقت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف . فما ثبت فى يدى إلا صفيحة يمانية . . ».

خالد فى فتح مكة :

نقض أهل مكة تلك الهدنة التى كانت بينهم وبين الرسول ، وتغلبت روح الشر على روح الإخاء والسلام ، فأغار أهل مكة على إحدى القبائل المحالفة للمسلمين ، برغم ما بين الفريقين من اتفاق سابق على أن تضع الحرب أوزارها ، ويرد الرسول من يأتيه من قريش مسلماً بدون إذن وليه ، ولا تلزم قريش برد من يأتى إليها من عند محمد ، ومن أحب الدخول فى عقد قريش وعهدها فله ذلك ، ومن أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل فيه .

فاستجارت القبيلة المعتدى عليها بالرسول الكريم ، فعوّل على تأديب قريش ، وقطع دابر المشركين ، وعجم عودهم ، فجهز حملة كبيرة قوامها عشرة آلاف من المسلمين وسار إلى مكة فى السنة الثامنة من الهجرة .

واعتمد الرسول فى خطته على كتمانها وعدم التصريح بها ، حتى يتسنى له أن يباغت قريشاً ، فيكون فى هجومه القضاء الأخير عليها . وكان يقول : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها .

وأسند الرسول صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد فى هذه المعركة قيادة الميمنة وكانت تضم لفيفاً من قبائل العرب مثل أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة ، فدخل خالد من الليط (بالكسر) وهو موضع بأسفل مكة فى حين دخل قواد آخرون من ثلاثة مواضع أخرى ، فكان دخول المسلمين

مكة من أربعة مواضع .

وكانت خطة الرسول الأولى تهدف إلى عدم إراقة الدماء ، بيد أنه وجد ألاّ مفر من ذلك إزاء عناد المشركين وإصرارهم ، فأذن الرسول لخالد فى قتال من يتصداه ، فأخذ يقتلهم شر قتلة دون تردد أو إحجام ، وغدا فارس الميدان الذى يجز الرؤوس ويطوح بالرقاب .

وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة ، وطاف بها سبع مرات ثم أمر بإزالة التماثيل والصور ، وتحطيم الأصنام وهو يقول : « وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا » . . .

ولم تمض خمسة أيام على هذا الفتح المبين حتى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فى سرية قوامها ثلاثون فارساً من المسلمين إلى بطن نخلة حيث يجثم هيكل العزى وهو أعظم أصنام قريش الذى تعظمه قبيلة مضر وكنانة كلها فيذبحون له الذبائح ، ويقدمون له القرابين ، ويرفعون إليه الابتهالات ويزجون إليه الدعوات ، لاقتلاع هذا الصنم وتحطيمه ، فما إن رأى كبيرهم خالد بن الوليد بين أصحابه حتى قال مخاطباً العزى :

أيا عز شدى شدة لا شوى لها ... على خالد ، ألقى القناع وشمرى
ويا عز إن لم تقتلى اليوم خالداً ... فبوئى بإثم عاجل ، أو تنصرى !

ولكن العزى لم تكن تملك من أمرها شيئاً ، ولا من أمر المشركين

شيئًا ، ولم تكن تستطيع أن تتكلم أو تتحرك ، ولم تكن تقدر أن تمس خالد بن الوليد بسوء ، فظلت واجمة كما كانت تخيم عليها كآبة الأحجار ، وصمت الجماد . فانقض عليها خالد بن الوليد بمعوله هدمًا وتحطيمًا وقلعًا وتكسيراً ، وهى لا تستطيع أن تتكلم أو تجيب ، أو تثور أو تحتج ، لا لشيء إلا لأنها آلهة مزيفة قدت من صخور الجبال !

ومضى خالد بن الوليد يقول :

يا عز كفرانك لا سبحانك   إنى رأيت الله قد أهانك

اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد :

أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب فتح مكة ، خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة ليؤدبهم ، ويرد غاراتهم التى يكيدون بها المسلمين ، فلما لمح بنو جذيمة خالد بن الوليد بين سريته حملوا السلاح واستعدوا للقتال فنهض فيهم خالد بن الوليد قائلا :

ــ ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا .

فرنت كلمات خالد بن الوليد بين جموع بنى جذيمة كأنها الرعد القاصف ، والبرق الخاطف ونهض فيهم كبير يسمى « جحدم » ظن فى نفسه الشجاعة ، والقدرة على مواجهة الخصوم فقال :

ــ ويلكم يا بنى جذيمة ، إنه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح إلا الأسر ، وما بعد الأسر إلا ضرب الأعناق .

وارتعدت فرائص الرجل ، وتملكته قشعريرة شديدة ، إلا أنه جمع جُماح نفسه وطفق يصيح .

ـ والله لا أضع سلاحى أبداً .

ولكن كلمات الرجل ذهبت أدراج الرياح . وتلاشت فى الفضاء ، ولم تجد آذاناً صاغية أوعقولا واعية ، وصاح رجل فيهم .

ـ ياجحدم ، أتريد أن تسفك دماءنا وتحطم رقابنا ، وتيتّم أطفالنا ، وترمل نساءنا ، لاوالله ما نرفع السلاح فى وجه خالد بن الوليد ! فرد عليه جحدم قائلا :

ـ إن الشجاعة تتطلب منا أن نقاوم !

وكان جحدم يصيح بهذه الكلمة وقد رانت عليه سحابة من الخوف فهوممتقع الوجه ، ذاهب اللون ، زائغ النظرات ، فرد عليه الرجل قائلا :

ـ إن حربنا لخالد إلقاء بأنفسنا إلى التهلكة ، ولون من التهور ، لا الإقدام .

وانتهى الأمر ببنى جذيمة إلى إلقاء السلاح ، بناء على رغبة خالد ، فأمر خالد بأسرهم فأسروا ، وظن خالد أنهم سيكفون عن هذر القول وسفه الحديث عند الأسر ، بيد أن بعضهم زاد اللجاج فى الباطل ، فأمر بهم فكتفوا ، وشد وثاقهم ، وعرضهم على السيف فقتل منهم من قتل .

وطير الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد » . وتلفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى على بن

أبى طالب ، وأمره أن يذهب بمال إلى بنى جذيمة فودى قتلاهم ، وأعطاهم ثمن ما أخذ منهم حتى ميلغة الكلب ، وقسم المال بينهم .

فلما علم النبي بذلك استحسنه ، وعند رجوع خالد بن الوليد من بنى جذيمة أنكر عليه عبد الرحمن بن عوف ذلك ، وجرى بينهما كلام ، فسب خالد عبد الرحمن فغضب النبي وقال لخالد : لا تسبوا أصحابى ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدى أحدهم ولا نصفه !

خالد فى حنين :

لم يكد يمضى على الرسول بمكة خمسة عشر يوماً حتى قدمت هوازن وثقيف لمحاربة الرسول وكان على رأسهم مالك بن عوف ، الذى جاء يهدد ويتوعد وخلفه الرجال والنساء والأطفال والأموال لكى يحول بينهم وبين الفرار ، فأشار عليه دريد بن الصمة أن يرجع النساء والأطفال قائلا :

— مر يا مالك بإرجاع النساء والأطفال إلى الديار فإن فى سيرهم تعويقاً لنا على التقدم ، وثقلا لنا فى السير .

— دع عنك هذا الهراء يا دريد ، فإننا لو تركناهم ولوا الأدبار وبثوا الفرقة فى صفوفنا .

— لا أعتقد ذلك يا مالك ، فما يستطيع أحد منهم أن يتحمل هول المعركة ، ولظى الحرب ، ومقارعة السنان بالسنان .

— ليس هذا أمرك يا دريد ! اكسروا جفون سيوفكم إذا لقيتم المسلمين

واحملوا عليهم حملة رجل واحد !

ومضى الجيش الجرار من ثقيف وهوازن ، وانقض على المسلمين بغتة من شعب الوادى ، ففزع المسلمون ، واختل نظامهم ، ولاذ بعضهم بالفرار ، غير أن النبي وقف ينادى :

— إلىّ أيها الناس . أنا رسول الله .

فتلفت المسلمون إلى مصدر الصوت ، فإذا النبي واقف يجمع الشمل ويلم الصفوف ويشحذ العزائم ، لمعاودة القتال ، وكان خالد بن الوليد أول من رجع لمؤازرة الرسول والوقوف بجانبه ، ورد هجمات الأعداء ، حتى كثرت جراحاته . فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رحله ، بعدما هزم الله هوازن ليعرف خبره ، ويعوده ، فنفث فى جرحه فالتأم .

ولما علم النبي أن خالد بن الوليد قتل امرأة فى غزوة حنين ، نهاه النبي عن قتل النساء والأولاد والأجراء .

وعندما شفى من جراحه استأنف كفاحه فى سبيل الإسلام ، فولى وجهه صوب « أكيدر بن عبد الملك الكندى النصرانى ، أمير دومة الجندل [1] » على رأس سرية مكونة من خمسمائة فارس ، وتقدم الفارس الصنديد حتى استطاع أن يهزم قواد أكيدر فى سرعة خاطفة ، ونظر أكيدر حوله فوجد جنده وقد ألقوا السلاح ، ومشوا فى ركاب خالد بن

---

(١) حصن قريب من جبل طيء على سبع مراحل من دمشق (معجم البلدان ج ٤) .

الوليد صاغرين ، بعد ما راعتهم شجاعته وفروسيته ، وأخذتهم شدته وسطوته ، فأصبح فاقد اللب ، ذاهب اللون ، موزع النفس ، مفرق الوجدان ، لا حول له ولا طول ، وأيقن أن خاتمته قد حانت ، ونهايته قد أزفت ، فألقى أكيدر السلاح ، ورفع راية الاستسلام ، وأمر بفتح « دومة الجندل » كلها لجيوش خالد بن الوليد ، ففتحت أبوابها فداء لصاحبها ، ومنها ساق خالد بن الوليد ألفى بعير ، وثمانمائة شاة ، وأربعمائة درع . وذهب بها ومعه أكيدر بن عبد الملك الكندى إلى المدينة .

وكان خالد بن الوليد قد أرسل إلى رسول الله قباءه المذهب بعد انتصاره عليه ، فأرسل إليه من يقول :

ــ إن ظفرت بأكيدر فلا تقتله وائت به إلىّ .

فلما حضر أكيدر إلى الرسول صالحه على الجزية ورده إلى بلده ، وفوّت على خالد بن الوليد فرصة قتله إذ كان يظن أن الرسول سوف يأمره بقتله بمجرد أن يصل إليه . غير أنه على النقيض من ذلك أمر بحقن دمه ودم أخيه .

هدم اللات :

ذهب وفد ثقيف إلى النبي لمفاوضته فى شأن الحرب الدائرة بينهم وبين المسلمين بعد أن اشتد حصاره للطائف ، وظلت تنوشهم النبال أياماً

متابعة ، واضطر إلى أن ينصب المنجنيق ويرميهم به ، كما سير جنده فى الدبابات [١] والضبور [٢] .

فأعلن الوفد إلى الرسول الكريم عن استعداده لاعتناق الإسلام وقال كبيرهم بعدما ألقى على الرسول تحية الجاهلية الأولى لا تحية الإسلام :

ــ إننا مستعدون لاعتناق الإسلام غير أننا نجد الصلاة ثقيلة علينا : فرد الرسول الكريم .

ــ إنه لا خير فى دين لا صلاة فيه .

ــ إذن فدع لنا صنم اللات ثلاث سنين .

ولكن الرسول أبى عليهم ذلك ، فليس هذا من الإسلام فى شىء فطلبوا منه أن يدعها سنتين بعد ثلاث سنوات ، ولكنه لم يجب لهم ذلك ، فعادوا يطلبون أن تبقى لهم سنة واحدة . وكان جواب الرسول هو الرفض القاطع .

وتطرق بهم الأمر أن طلبوا منه أن تبقى شهراً واحداً ، ولكن الرسول الكريم ظل فى إصراره . وكان إباؤه حاسما لا تردد فيه ولا إحجام ، ولا لين فيه ولا هوادة .

---

(١) الدبابة : أداة من أدوات الحرب يدخل المحاربون فى جوفها ويدفعونها إلى جدار الحصن فيحدثون به الثغرات .

(٢) الضبور : جمع ضبر وهى أداة أشبه بالدبابة تصنع من الخشب الموثى بالجلد ، وهى محصنة من كل جانب .

وأخيراً طلبو منه ألا يهدموا صنمهم بأيديهم ، فأعفاهم الرسول من ذلك . واستجاب لرغبتهم هذه ، وقدم أبو سفيان والمغيرة لهدم الصنم ، فهدمه المغيرة ونساء ثقيف حسراً يبكين عليه ، ولا يجرؤ أحد أن يقترب من هؤلاء الذين يهدمونه بعدما اتفق الفريقان على ذلك .

وكان خالد بن الوليد هو الذى يشرف على هذا الهدم وأمر المغيرة ابن شعبة بتنفيذه حتى أزال معالمه ، وقطعه إرباً إرباً .

خالد فى نجران :

أرسل النبى فى العام العاشر من الهجرة خالد بن الوليد إلى بنى الحارث ابن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثاً ، فإن أجابوا قام فيهم وعلمهم شرائع الإسلام ، وإن لم يفعلوا قاتلهم ، فمضى أتباعه فى كل مكان يدعون الناس إلى الإسلام وهم يقولون : « يأيها الناس أسلموا تسلموا » فولج الإسلام قلوبهم ، وأصبحوا بنعمة الله إخواناً ، وكتب خالد بن الوليد إلى رسول الله يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد النبى رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد ، السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد يا رسول الله صلى الله عليك ، فإنك بعثتنى إلى بنى الحارث بن كعب وأمرتنى إذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا قبلت منهم ، وعلمتهم معالم الإسلام ، وكتاب الله ، وسنة

نبيه ، وإن لم يسلموا قاتلتهم ، وإنى قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعثت فيهم ركباناً : يابنى الحارث ، أسلموا تسلموا . فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم ، وآمرهم بما أمرهم الله به وأنهاهم عما ينهاهم الله عنه . وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبى صلى الله عليه وسلم حتى يكتب إلىّ رسول الله ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته » .

تقبل الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الرسالة التى تفوح بعطر الإيمان من خالد بن الوليد فسرت نفسه . وثلج صدره ، وانبسط وجهه ، وأضاءت أساريره ، وبعث بكتاب آخر إلى خالد بن الوليد جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبى رسول الله إلى خالد بن الوليد ، سلام عليك ، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن كتابك جاءنى مع رسلك تخبر أن بنى الحارث قد أسلموا قبل أن تقاتلهم ، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام . وشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن قد هداهم بهداه ، فبشرهم وأنذرهم ، وأقبل ، وليقبل معك وفدهم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. »

فأقبل خالد بن الوليد إلى الرسول الكريم بمجرد وصول هذا الكتاب الكريم إليه ، وفى صحبته وفد بنى الحارث الذين حضروا والشوق يهزهم إلى رؤية رسول الله ، والائتناس به ، والإصغاء إلى نصحه الكريم بعدما بدلهم الله بعد الكفر إيماناً وبعد الشرك توحيداً ، وبعد الجاهلية إسلاماً وسلاماً .

خالد فى اليمن الخضراء :

شرع الرسول بعث الرسل إلى شتى الأقطار والأمصار ليدعوا للإسلام . وينشروا دين الله ، بعدما تبين الحق من الباطل ، والغث من الطيب ، وبانت الظلمات من النور ، فأرسل خالد بن الوليد عقب إرساله إلى نصارى نجران إلى أهل اليمن أو بلاد العرب السعيدة كما كانوا يسمونها على رأس نفر من الجند ، كما أرسل على بن أبى طالب إلى جهة أخرى فى اليمن الخضراء ، بيد أنه قال لهما : « إذا التقيتما فالأمير على بن أبى طالب » .

ولعل الرسول الكريم أشار بهذا الرأى حتى لا تتوزع القوى ، أو تتبدد الجهود ، أو يتطرق النزاع بين القائدين ، فضلا عن أن على بن أبى طالب كان أول من أسلم من الفتيان ، وكان ابن عم الرسول الكريم . وكان خالد بن الوليد يمتاز بالحدة والعنف التى قد تركبه متن الشطط .

على أن خالد بن الوليد قام بدور كبير فى اليمن فى نشر الإسلام ، فدخل الناس فى دين الله أفواجاً . وكان له الثواب فى الدنيا والآخرة . وظل عضداً قوياً للرسول الأمين حتى واتته المنية ، وصعدت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى ، فودعه خالد بنفس محطمة وقلب حزين ، وعيون تخضلها الدموع والعبرات . . . . . .

فى صحبة أبى بكر الصديق :

تمت البيعة لأبى بكر الصديق بعد موت الرسول الكريم ، وأصبح البزاز الذى كان يتاجر فى الثياب خليفة للمسلمين ونهض الصديق ليعلن سياسته على الملأ فقال « إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقوّمونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا قوم ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » .

ولم يكد أبو بكر الصديق يتسلم مقاليد الخلافة ، حتى بدأ الهمس والكلام حول خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشرع بعض ضعفاء الإيمان ينفضون عن الإسلام ، ودب التناحر والتنافر بين بعض القبائل العربية حول منصب الخلافة ، وكثر القيل والقال ، وزاد عدد المرتدين عن الإسلام ، فعول أبو بكر الصديق أن يؤدبهم ، ويجتث شأفتهم ، ويقطع دابرهم . وهداه تفكيره إلى قائد حازم همام . ألا وهو خالد بن الوليد ، فهدأت نفسه ، واطمأن قلبه ، وارتاح باله ، وأيقن أن خالد ابن الوليد سيقضى على هؤلاء المرتدين القضاء الأخير.

ولكن عمر بن الخطاب عندما علم أن أبا بكر ينوى مقاتلة الذين منعوا الزكاة لم يطمئن إلى ذلك ، وذهب إلى أبى بكر يعبر له عن دخيلة نفسه ، فقال أبو بكر : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » . فقال عمر فى شىء من الحدة : كيف تقاتل الناس ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم منى ماله ودمه ، إلا بحقها ، وحسابهم على الله . . . »

فرد أبو بكر : « رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك ، أجبار فى الجاهلية وخوار فى الإسلام ؟ »

ولم يلبث عمر بن الخطاب بعد ذلك أن عرف أن أبا بكر على حق فقال : « فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق » .

ومضى أبو بكر الصديق ينظم خطة الجهاد فى سبيل الله ، ومحاربة المرتدين فى شتى الأصقاع والبقاع ، وفيما يلى أسماء القواد ووجهة سيرهم .

١ ــ خالد بن الوليد . وجهه إلى طليحة بن خويلد الأسدى ، حتى إذا ما انتهى من محاربته سار إلى مالك بن نويرة

٢ ــ عكرمة بن أبى جهل : إلى مسيلمة الكذاب .

٣ ــ شرحبيل بن حسنة فى أثر عكرمة ، فإذا فرغا من أمر مسيلمة الكذاب قصدا قضاعة .

٤ ـ المهاجر بن أبى أمية : إلى الأسود العنسى بصنعاء .
٥ ـ حذيفة بن محصن : إلى أهل « دبا » بعمان .
٦ ـ عرفجة بن هرثمة : إلى مهرة .
٧ ـ سويد بن مقرن : إلى تهامة باليمن .
٨ ـ العلاء بن الحضرمى : إلى البحرين .
٩ ـ طريفة بن حاجر : إلى بنى سليم ومن معهم من هوازن .
١٠ ـ عمرو بن العاص : إلى قضاعة .
١١ ـ خالد بن سعد : إلى مشارف الشام .

وألقى أبو بكر الصديق على عاتق خالد بن الوليد عبئاً جسيماً فى هذه الحملات لما عرف عنه من صلابة عود ، وقوة عزيمة ، ورباطة جأش ، وكان اللواء الذى عقده له أمنع الألوية التى اختارها وأقواها ، وكان يضم نخبة من المهاجرين والأنصار ، الذين عرفوا بالبلاء فى الحروب والصبر على الخطوب ، ولعل خالد بن الوليد هو الذى اختارهم فكانوا خير عون له فى حرب المرتدين .

ولم يشأ أبو بكر الصديق أن يصدر أوامره إلى خالد بن الوليد وزملائه القواد لمحاربة المرتدين ، قبل أن يوجه إنذاره إليهم حتى إذا ما عصوا أخذهم أخذ جبار مقتدر . فكتب إليهم الكتاب التالى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بلغه

كتابى هذا من عامة وخاصة ، أقام على إسلامه أو رجع عنه .

سلام على من اتبع الهدى ،ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، نقر بما جاء به ، ونكفر من أبى ونجاهده ، أما بعد ، فإن الله تعالى أرسل محمداً بالحق من عنده إلى خلقه (بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين) . فهدى الله بالحق من أجاب إليه وضرب رسول الله بإذنه من أدبر عنه ، حتى صار إلى الإسلام طوعاً وكرهاً ، ثم توفى الله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد نفذ لأمر الله ونصح لأمته ، وقضى الذى عليه ، وكان الله قد بين له ذلك ، ولأهل الإسلام فى الكتاب الذى أنزل فقال : (إنك ميت وإنهم ميتون) . وقال : (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت فهم الخالدون) . وقال للمؤمنين : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ،أفإن مات أو قتل ، انقلبتم على أعقابكم ومن يَنْقَلِب على عقبيه ، فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين) . فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له ، فإن الله له بالمرصاد ، حى قيوم لا يموت ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، حافظ لأمره ، منتقم من عدوه ، يجزيه .

وإنى أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله ، وما جاء به نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وأن تهتدوا بهداه ، وأن تعتصموا بدين الله ،

فإن كل من لم يهده الله ضال ، وكل من لم يعافه مبتلى ، وكل من لم يعنه الله مخذول ، فمن هداه الله كان مهتدياً ، ومن أضله كان ضالا .

قال الله تعالى : (من يَهْدِ اللهُ فهو المهتَد ، ومن يُضْلِل فلن تجد له وليًّا مُرْشِداً) . ولم يقبل منه فى الدنيا عمل حتى يقر به ، ولم يقبل منه فى الآخرة صرْفٌ ولا عدل .

وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام ، وعمل به اغتراراً بالله ، وجهالة بأمره ، وإجابة للشيطان ، قال الله تعالى : (وإذ قُلنا للملائكة اسجدُوا لآدم فسجدوا إلا إبْليسَ كان من الجن فَفَسَقَ عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى ، وهم لكم عدو . بئس للظالمين بدلا) . وقال : (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) .

وإنى بعثت إليكم فلاناً فى جيش من المهاجرين والأنصار ، والتابعين بإحسان وأمرته ألا يقاتل أحداً ، ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله ، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه ، وأعانه عليه ، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ، ثم لا يلقى على أحد منهم قدر الله ، وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وأن يسبى النساء والذرارى ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، فمن اتبعه فهو خير له ، ومن تركه فلن يعجز الله ، وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم ، والداعية الأذان ، فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا عاجلوهم ، وإن أذنوا

سألوهم ما عليهم ، فإن أبوا عاجلوهم ، وإن أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغى لهم . . . » .

وهكذا أنذر أبو بكر الصديق المرتدين والمتنبئين بهذا الكتاب الواضح المبين ، حتى لا تكون هناك فتنة ، وحتى يقطع دابر الشك باليقين !

خالد فى إثر طليحة بن خويلد :

بعد هذا الإنذار السلمى الثاقب ، مضى خالد بن الوليد ينفذ سياسة أبى بكر الصديق دون تردد أو إحجام ، ودون رفق أو هوادة : فى سبيل الله ، ومن أجل الإسلام . يدعو الناس بالتى هى أحسن ، فإذا أبوا أعمل سيفه فى الرقاب .

وكان بين الذين يمكرون للإسلام رجل من المشركين ادعى النبوة ، وأوهم الجهال أن الوحى يتنزل عليه ، بين الفينة والفينة . وجاءه بقرآن جديد ، ودعا الناس إلى التصديق به وتلاوته ، برغم ما فيه من قبح الأسلوب وتعمل الصنعة ، وتكلف العبارة ، ومن آياته ، « والحمام واليمام ، والصرد الصوام ، قد صمن قبلكم بأعوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام » .

فتحرك خالد بن الوليد ليقطع دابر هذا الرجل فى بنى أسد ، بيد أنه قبل أن يتحرك لقتاله . استأنس برأى أبى بكر الصديق ، فأمره بمشاورة أصحابه فيما نزل به ، وألا يخالفهم ، فإن دخل أرض العدو كان بعيداً عن الحملة ، حتى لا يصيبه مكروه وأن يستظهر الزاد ، ويسير بالأدلاء ،

ويقدم أمامه الطلائع لترتاد المنازل ، وأن يسير مع أصحابه فى تعبئة كاملة جيدة ، ويحرص على الموت توهب له الحياة ، ولا يقاتل بمجروح ، ويقلل من الكلام ويقبل من الناس علانيتهم ، ويكلهم إلى الله فى سريرتهم ، فإذا أتى داراً وسمع أذاناً أورأى مصلياً أمسك حتى يسأل عن الذين نقموا أو منعوا الصدقة . وإن لم يسمع أذاناً أولم ير مصلياً شن الغارة وقتل وأحرق كل من ترك واحدة من الخمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

ولم يكد خالد بن الوليد يستمع إلى هذه النصائح من أبى بكر الصديق حتى دمعت عيناه ، وبللت دموعه خديه ، ولم يكن خالد يبكى رهبة أو خوفاً ، إنما كان يبكى من الفرح ، لأن الله قد أتاح له الفرصة للجهاد فى سبيل الإسلام ، والاستشهاد فى سبيل الله غاية أمله ، ومنتهى رجائه .

فخرج من عند أبى بكر الصديق وهو يمسح دموعه ، ثم نادى فى أصحابه ليستعدوا للرحيل فقد أزفت الساعة ، وحان وقت الجهاد .

وتقلد خالد بن الوليد إمارة الجيش ، واتجه صوب طليحة بن خويلد الأسدى ، وفى أثناء طريقه التقى بجموع من القبائل المتمردة فهزمها شر هزيمة ، ونكل بالمشركين أشد تنكيل وردها للإسلام ، وعندما دنا من جيش طليحة أرسل عكاشة بن محصن ، وثابت بن أقوم لاستكشاف مواضع العدو ، وبينما هما يتوغلان فى البيداء لقيا حبال بن خويلد أخا

طليحة فقتلاه ، وخرّ لتوه على الأرض يضرج فى دمائه . فلما علم طليحة بموت أخيه حبال اشتد حنقه ، وزادت ضغينته ، وعول على الانتقام من المسلمين مهما كلفه ذلك من جهد أو مال ، وإزهاق أرواح.

وانبرى خويلد مع أخيه سلمة لتنفيذ انتقامه ، فالتقيا بعكاشة بن محصن ،وثابت بن أقوم فى سبيلهما فانقضا عليهما وما زالا بهما حتى قتلا .

ومر خالد بن الوليد بجيشه ورأوا عكاشة وثابتاً قتيلين فجزعوا أشد الجزع وقالوا : سيدان من سادات المسلمين . وفارسان من فرسانهم .

ولم يشأ خالد بن الوليد أن يجعل اليأس يتطرق إلى جنده ، أو يسرى فى صفوفه من هول هذه الفاجعة التى حلت بعكاشة وثابت فقال لهم : هل لكم إلى أن يقبل بكم إلى حى من أحياء العرب ، كثير عددهم ، شديدة شوكتهم ، ولم يرتد منهم عن الإسلام أحد ، فقال له الناس : ومن هذا الحى الذى تعنى ؟ فنعم والله الحى هو ، فقال لهم : طيئ فقالوا : وفقك الله . نعم الرأى رأيت .

فانصرف خالد بن الوليد بالجيش حتى نزل فى طيئ ، وهناك ارتفعت الروح المعنوية فى الجند ، فعولوا على استئناف القتال أشد بأساً ، وأقوى مراساً ، وأعظم قوة وفتوة .

وكان عيينة بن حصن الفزارى قد انضم إلى جيش طليحة بن خويلد فى هذه الآونة ومعه سبعمائة من قبيلة بنى فزارة ، فلم يرهب هذا المدد جند خالد بن الوليد إنما زادهم إصراراً فى الجهاد ، وتعلقاً به ، وحرصاً عليه .

وتعطشاً إلى ساعة اللقاء .

والتقى الجمعان ودارت رحى الحرب بين الفريقين ، وكان طليحة « الكيذبان » متلففاً فى كسائه ، ويجلس فى بيت من الشعر وحوله بعض أصحابه يسوق إليهم الترهات من الحديث ، والسخف من القول ويردد قرآنه العجيب الذى أتى به على زعمه : « والقرد والنيدب ، ليقتلن النيدب ، إذا أصر أخوكم الجندب ، والله لأنسحب ، ولانزال نضرب حتى ينيح أهل يثرب » فلما جاءته أنباء الحرب قبع خائفاً لا ينطق فقدم عليه عيينة بن حصن وقال له : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال : لا . فرجع ، وقاتل حتى إذا غصته الحرب ، وأوهاه القتال ، كر عليه فقال : لا أبا لك أجاءك جبريل بعد ؟ قال : لا . فقال عيينة : حتى متى قد والله بلغ منا ، ثم رجع فقاتل قتالا شديداً ، ثم كر عليه فقال : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال : نعم . قال : فماذا قال لك ؟ قال لى رحاً كرحاه ، وحديثاً لا تنساه .

فقال عيينة : قد علم الله أن سيكون حديث لا تنساه ، يا بنى فزارة هكذا فانصرفوا فهذا والله كذاب ، فانصرفوا ، وانهزم جنده .

وراع منظر القتال طليحة بن خويلد فلم يستطع أن يواجه العاصفة أو يصمد أمام أسنة الحراب ، فعول على الفرار ، وامتطى صهوة فرسه ، وهيأ بعيراً لزوجه ــ النوار ــ ثم قال : من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت ــ وينجو بأهله فليفعل بيد أن أحداً لم يصغ إليه أو يلقى إليه بالا .

ونظر الناس فإذا طليحة بن خويلد يسابق الريح بفرسه ، وقد أثار حوله غباراً كثيفاً ، ونقعاً عظيماً ، وامرأته تركب بعيرها . . . وهى تتابعه حتى توارى شبحهما عن العيون . . . . .

وبلغ طليحة بن خويلد أرض الشام ، ويشاء ربك أن يدخل الإسلام إلى قلبه ، فيصبح بعد ذلك مسلماً متمسكاً بإسلامه ، ويكون له جهاد محمود ، وأثر مشكور فى حروب الفرس فى عهد عمر بن الخطاب .

ويشاء ربك بعد ذلك أن يستشهد خويلد فى سبيل الإسلام فى إحدى المعارك بعدما كان خالد بن الوليد يريد أن يقتله على الشرك .

أما عشيرته وأهله فإن خالد بن الوليد لم يقبل من أحد من قبيلة أسد ولا غطفان ولا من لف لفهم إلا أن يأتوه بالذين حرقوا وقتلوا ، وتعدوا على أهل الإسلام فى حال ردتهم ، فأتوه بهم فقبل منهم إلا قرة بن هبيرة ونفراً معه أوثقهم ومثل بالذين عدوا على الإسلام ، فأحرقهم بالنيران ، ورضخهم بالحجارة ، ورمى بهم من الجبال ، ونكسهم فى الآبار .

وكتب إلى أبى بكر الصديق يقول : « إن بنى عامر أقبلت بعد إعراض ، ودخلت فى الإسلام بعد تربص ، وإنى لم أقبل من أحد قاتلنى ، أو سالمنى شيئاً حتى يجيئونى بمن عدا على المسلمين ، فقتلتهم كل قتلة ، وبعثت إليك بقرة وأصحابه » .

وكان خالد بن الوليد قد أوثق عيينة بن حصن ، وقرة بن هبيرة ، وبعث بهما إلى أبى بكر ، فلما رآهما الصديق وتحدث إليهما تجاوز

عنهما ، وحقن دماءهما وكتب إلى خالد بن الوليد « ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً ، واتق الله فى أمرك ، فإن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون ، جد فى أمر الله ولا تنين ، ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ، ونكلت به غيره ، ومن أحببت ممن حاد الله أو ضاده ممن ترى أن فى ذلك صلاحاً فاقتله » .

فض خالد بن الوليد هذه الرسالة ، وقرأها مرة ومرة ، وأخذ يقلب نظراته فيها ، فقد ظن أنه حاد عن الحق بأعماله ، وأن أبا بكر الصديق لن يقره على ما صنع ، وسيرفع عنه إمرة الجيش ، فهدأت نفسه عندما تسلم هذه الرسالة ، ولمس روح أبى بكر إزاء المتنبئين والمرتدين .

وبقى فى عسكره « بالبزاخة » شهراً كاملا يقاتل فلول القبائل المرتدة ومن التف حول أم زمل من المرتدين . إذ كانت امرأة شديدة الوطأة على المسلمين ، تحرض رجالها على قتالهم فينقضون عليهم انقضاضة الصاعقة ، يقتلونهم ، ويمثلون بجثثهم فجعل مائة من الإبل لمن ينخس جملها ، فاندفع فوارس المسلمين نحوها غير أنهم كانوا يستشهدون قبل أن يصلوا إلى مواطئ أقدام جملها ، ويموتون دونها ، حتى مات حول جملها مائة رجل قبل أن يستطيع فرسان المسلمين أن يصيبوها بسوء ، فلما وصل إلى جملها عقروه وقتلوها ، وقضوا على فتنتها ، فلما شاهدها أصحابها مضرجة فى دمائها تملكهم الرعب ، واستبد بهم الفزع ، فتشتت شملهم ولاذوا بالفرار .

وهكذا استطاع خالد بن الوليد أن يقطع دابر أم زِمْل وأصحابه ، ويقضى على الفتنة فى مرقدها قبل استفحالها .

ولم يكن طليحة بن خويلد ولا أم زِمْل هدف خالد بن الوليد فحسب إنما شهر سيفه فى وجوه المرتدين جميعاً دون خوف أو وجل .

وكان أبو شجرة بن عبد العزى بن الشاعرة الخنساء من المرتدين الذين كان خالد بن الوليد يطلب رقابهم ، إذ لحق بأهل الردة وجعل يقول الشعر فى تحريضهم على المسلمين وقتالهم ، والسخرية من خالد بن الوليد ، والتهكم على جيشه ، والزهو بشجاعته فى ميدان القتال ، ومن ذلك قوله :

فرويت رمحى من كتيبة خالد　　　وإنى لأرجو بعدها أن أعمرا

بيد أنه وجد جهوده فى تحريض الناس تذهب هباء ، ووجد الناس راسخى الإيمان كالطود الشامخ ، لا يتزحزحون عن الإسلام قيد أنملة . اللهم إلا بعض ضعيفى الإيمان ، ووجد المرتدين يرجعون مرة أخرى إلى الإسلام ، فحدث نفسه أن يعود إليه ، وجمع شتات نفسه ، وانطلق إلى أبى بكر الصديق يلتمس منه العفو ، وقد قبل منه أبو بكر وعفا عنه فيمن عفا عنهم .

فلما تقلد عمر بن الخطاب الخلافة جاءه أبو شجرة ابن الخنساء وهو يعطى المساكين من الصدقة ويقسمها بين الفقراء فقال : يا أمير المؤمنين :

أعطنى ، فإنى ذو حاجة قال عمر : من أنت ؟ فلما عرفه ابن الخطاب قال : أى عدو الله ! ألست الذى تقول :

فرويت رمحى من كتيبة خالد وإنى لأرجو بعدها أن أعمرا

ثم جعل يعلوه بالدرة فى رأسه ، حتى طار عدواً إلى ناقته فارتحلها عائداً إلى قومه من بنى سليم .

خالد ومالك بن نويرة :

كان مالك بن نويرة سيداً مطاعاً بين قومه ، وكان بنو تميم يلجأون إليه فى شتى أمورهم ، فكان يصرفها بينهم . إذ كانت له مكانة الصدارة فيهم .

وقد وفد مع بنى تميم على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأشهر إسلامه بيد أنه لما وافته المنية وانتقل إلى الرفيق الأعلى . ارتد منهم من ارتد عن الإسلام ، ومنهم من منع الزكاة حتى قوتل كمالك بن نويرة .

فجهز أبو بكر جيشاً لمحاربته . جعل على رأسه خالد بن الوليد ، فانطلق خالد حتى بلغ مالك بن نويرة فى قومه بنى ثعلبة بن يربوع فقتله .

وقد اختلف الرواة فى أمر قتله فمن قائل إن أتباعه أذنوا فكان من الواجب أن يكف خالد عنهم عملا بوصية أبى بكر الصديق « فإن أذن القوم فكفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا قاتلوا وانهبوا ، وإن أجابوكم إلى داعية

الإسلام فسائلوهم عن الزكاة ، فإن أقروا فاقبلوا منهم ، وإن أبو فقاتلوهم » ومن قائل إن أتباعه لم يؤذنوا . فوجب قتالهم .

وتقول بعض الروايات إن خالداً أمر منادياً فنادى « دافئوا أسراكم » وكان فى لغة كنانة إذا قالوا دافأنا الرجل وادفئوه بمعنى اقتلوه ، وفى لغة غيرهم أدفئوه من الدفء ، وكان اليوم شديد البرد ، فظن القوم أنه يريد القتل فقتلوه ، وقتله ضرار بن الأوزر » .

وتذهب بعض الروايات الأخرى إلى أن خالداً جادل مالكاً وطاوله وأن مالكاً أغلظ القول لخالد وتكلم عن الرسول كلاماً غير كريم ففى تاريخ الطبرى [١] « وكان خالد يعتذر فى قتله أنه قال وهو يراجعه : ما أخال صاحبكم إلا وقد كان يقول كذا وكذا قال : أو ما تعده لك صاحباً ؟ ثم قدمه فضرب عنقه وعنق أصحابه » .

وفى تاريخ ابن كثير [٢] « ويقال بل استدعى خالد مالك بن نويرة فأنبه على ما صدر منه من متابعة سجاح - المتنبئة الكاذبة - وعلى منعه الزكاة وقال : ألم تعلم أنها قرينة الصلاة ، فقال مالك : إن صاحبكم كان يزعم ذلك . فقال : أهو صاحبنا وليس بصاحبك . يا ضرار اضرب عنقه » .

وفى ابن خلكان [٣] « فكلمه خالد فى معناها - يعنى الزكاة - فقال

(١) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٢٤٣ .
(٢) تاريخ ابن كثير جـ ٦ ص ٣٢٢ .
(٣) ابن خلكان جـ ٢ ص ٢٢٧ .

مالك : إنى آتى بالصلاة دون الزكاة . فقال له خالد : أما علمت أن الصلاة والزكاة معاً لا تقبل واحدة دون أخرى ؟ فقال مالك : قد كان صاحبك يقول ذلك . قال خالد : وما تراه لك صاحباً ، والله لقد هممت أن أضرب عنقك ، ثم تجادلا بالكلام طويلا فقال له خالد : إنى قاتلك قال : أو بذلك أمرك صاحبك قال : وهذه بعد تلك . والله لأقتلنك .

وبعد أن قتل خالد بن الوليد مالك بن نويرة سبا زوجته ليلى ، وتزوج بها حتى ذهب بعض المغرضين إلى القول أنه قتل زوجها ليبنى بها ، وأنه كان بينهما هوى فى الجاهلية ، بيد أن هذا القول لا يقوم على أساس إذ أن ليلى بنت سنان زوجة مالك بن نويرة كانت من سبى نساء القوم،واصطفاها لنفسه ، ودخل بها ، وهذا العمل مشروع وجائز فى الإسلام .

وكان على رأس الثائرين أبو قتادة الأنصارى الذى انسحب من جيش خالد بن الوليد ، وسعى إلى المدينة ، ولقى أبا بكر الصديق ، وقص عليه قصة مالك بن نويرة ، وزوجته ليلى بنت سنان ، وأقسم ألا يقاتل تحت راية خالد أبداً . غير أن أبا بكر الصديق لم يرتح إلى قول أبى قتادة وأمره أن يعود من حيث جاء ، ويقاتل تحت إمرة قائده خالد بن الوليد .

ولما وصلت هذه الأنباء إلى عمر بن الخطاب تأثر من صنيع خالد بن الوليد وتكلم فيه عند أبى بكر حتى قال له : هبه يا عمر تأول ، فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد ، فإنى لا أشيم سيفاً سله الله على الكافرين » .

وعندما اشتدت ثورة عمر بن الخطاب على خالد استقدمه أبو بكر

الصديق استرضاء لابن الخطاب ، فلما وصل إلى المسجد كان يرتدى قباء عليه صدأ الحديد وقد غرز فى عمامته أسهماً ، فقام إليه عمر ونزع السهام وحطمها ، واشتد فى الحديث معه ، وقيل إنه قال لعلى : إن فى حق الله أن يقاد هذا بمالك ، قتل رجلا مسلماً ثم نزا على امرأته كما ينزو الحمار ، فقال أبو بكر : « سيف سله الله لا أكون أول من أغمده ! » .

ولكن الثابت فى التاريخ أن مالك بن نويرة لم يرجع إلى الإسلام ويقر الزكاة ، وليست هناك رواية واحدة تفيد عدوله عن ردته .

ولم يشأ أبو بكر بحصيف رأيه ، وثاقب فكره ، أن يعزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش لما دار حوله من أراجيف ، حتى لا تكون هناك فتنة ، وحتى يحافظ على بقاء الوحدة الإسلامية متماسكة لا تتزعزع ، قوية لا تلين .

فى أثر مسيلمة الكذاب :

كان من أشباه الرجال ، ولا رجال ، أصفر اللون ، مخنث الحديث ، أو « رويجلا ، أصيفر ، أخينس » على حد تعبير المؤرخين غير أنه نظر حوله فوجد محمداً رسول الله ، نبيًّا كريماً يلتف الناس حول دينه الجديد ، فحدثته نفسه أن يغدو نبيًّا دون أن يدرك أن الرسالة الربانية يصطفى الله بها من عباده من يشاء ، وليس فى استطاعة أحد أن يكون نبيًّا .

ولكن مسيلمة انصرف عن هذا كله ، ولم يكلف نفسه مهمة التأمل

والتفكير وقال : لم لم يبعث فى بنى حنيفة كما بعث فى قريش رسول ؟ أليس لبنى حنيفة مثل ما لقريش من حقوق ؟ أليس فى بنى حنيفة رجال مثل ما فى قريش من رجال ؟ !

بهذه المغالطات الواضحة ادعى مسيلمة النبوة ، حتى عظم شأنه بين أهل اليمامة ، والتف حوله لفيف من الجهال ، وأرسل إلى محمد يقول : « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك ، فإنى قد أشركت فى الأمر معك ، وأن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشاً قوم يعتدون » .

فكتب إليه محمد يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » .

وقبض الرسول الكريم دون أن يجتث شأفة هذا الكذاب فعوّل أبو بكر الصديق من بعده أن يقف له بالمرصاد حتى يقطع دابره » .

وكان هناك رجل يسمى « نهار الرجال » قد أرسله الرسول إلى اليمامة ليعلم الناس تعاليم الدين ، ويقرأ عليهم القرآن ، ويفقههم فى الدين . فأغراه مسيلمة الكذاب أن ينضم إلى صفوفه ، وكان الرجل مزعزع العقيدة مضطرب الجنان فانقاد لمسيلمة الكذاب ، وأيده بأقوال كاذبة نسبها إلى الرسول الكريم ومن ذلك شهادته بأن محمداً يقول : « إن مسيلمة قد أشرك معه » .

فكان لهذه الشهادة أثر كبير فى قلقلة النفوس ، وإزاغة القلوب وزعزعة الوجدان ، ولا سيما أن « نهار الرجال » كان عالماً فقيهاً من قبل محمد الرسول .

وهكذا عظم شأن مسيلمة الكذاب ، واشتد ساعده بتعضيد نهار الرجال ، وادعى أن الرحمن يأتيه فى الظلمة ، ويوحى إليه بتعاليم النبوة .

أرسل أبو بكر الصديق عكرمة بن أبى جهل لمحاربة مسيلمة الكذاب غير أن مسيلمة كان يستعد للمعركة بأربعين ألفاً من بنى حنيفة فلم يستطع عكرمة أن يعجم عوده ، ولم ينتظر المدد القادم بقيادة شرحبيل بن حسنة ، فانتصر عليه مسيلمة الكذاب ، وطيرت أنباء هذا الانتصار إلى أبى بكر الصديق ، فأصدر أوامره فى الحال إلى القائد المغوار خالد بن الوليد لإنقاذ الموقف .

وكان بين المدد حفاظ كتاب الله كما كان بينهم جماعة ممن شهدوا بدراً مع أن أبا بكر كان يضن بهم ويقول : « لا أستعمل أهل بدر ، أدعهم حتى يلقوا الله بصالح أعمالهم ، فإن الله يدفع بهم وبالصالحين أكثر مما ينتصر بهم » .

وقد خرج أبو بكر عن رأيه هذا لما لمسه فى البدريين من شجاعة فائقة النظير ، ولما لمسه فى دعوة مسيلمة الكذاب من خطر يهدد الإسلام ، ويعمل على تقويض أركانه ، وهدم دعائمه .

وصل جيش خالد بن الوليد إلى اليمامة واستعد للقتال ، وصادف

فى أثناء سيره سرية مجاعة بن مرارة أحد أنصار مسيلمة الكذاب فأسره وبدد جنده ، ولم يشأ أن يقتله لمكانته من قومه ، وحتى يستعين به على استجلاء خطط مسيلمة الكذاب ، وقيده بالحديد ، وجعله فى قبته ، وجعل زوجته ليلى بنت سنان تشرف على حراسته .

ووقف خالد بن الوليد على رأس الجيش يصدر الأوامر ولكن على حين غرة هجم بنو حنيفة على جيش خالد هجوماً عنيفاً قبل أن تنتظم صفوفه فاضطر خالد بن الوليد إلى الانسحاب من معسكره ، فدخله جنود مسيلمة الكذاب، وقطعوا بسيوفهم حباله ، وحمل رجل منهم على ليلى زوجته غير أن مجاعة صاح فى القوم : « أنا لها جار ، فنعمت الحرة ، عليكم بالرجال » .

ثارت نفس القائد المغوار خالد بن الوليد عندما أدرك هذا الفوز الذى أحرزه جنود مسيلمة الكذاب ، بيد أنه أيقن أنه فوز موقوت لن يستطيع أن يصمد أمام العاصفة الهوجاء ، والريح النكباء ! وعلم أن تقهقر جيشه يعزى إلى التواكل فصاح فى جيشه صيحة رهيبة اهتزت لها الجنبات وقال : « امتازوا أيها الناس ، لنعلم بلاء كل حى ، ولنعلم من أين نؤتى » .

فسرت الحماسة فى نفوس الجند ، وانطلقوا إلى المعركة شاهرى السلاح وصاح رجل يسمى (أبو حذيفة) : « يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال » . واندفع فى غمار المعركة يحصد بسيفه الرؤوس حتى سقط شهيداً ، كما أخذ سالم مولى أبى حذيفة الراية وقال : « بئس حامل القرآن

أنا إن لم أثبت » ومضى يقاتل حتى ضمه الله إليه .

ومضى خالد بن الوليد يدير دفة المعركة فى حكمة وأناة ، حتى خارت قوى جيش مسيلمة الكذاب ، وشعر بالهزيمة تدنو منه رويداً رويداً ورأى « محكم بن طفيل » أحد قواد جيش مسيلمة الكذاب الجند يولون الأدبار فصاح فيهم « الحديقة . . الحديقة » فجرى الجند إليها واحتموا بها ووقف محكم يحمى ظهورهم بسيفه ، ويلوحه فى الفضاء ، ويحزه فى رقاب المسلمين حتى لمحه عبد الرحمن بن أبى بكر ، فأغمد سيفه فى صدره فسقط على الأرض صريعاً . وانتهت فتنته .

وعول خالد بن الوليد على اقتحام الحديقة على أثر ذلك . وبينما هو يفكر فيمن يتقدم الصفوف دفعت البطولة « البراء بن مالك » إلى أن يقول : « يا معشر المسلمين . ألقونى عليهم فى الحديقة » .

ولكن الناس خافوا عليه . فازداد إصراراً على الهجوم وهو يقول : « والله لتطرحنى عليهم فيها » .

ورفعه المسلمون إلى أعلى الجدار ، ثم ألقى بنفسه على جموع مسيلمة الكذاب وهو يقصف الرقاب ذات اليمين وذات اليسار ، حتى فتح الباب للمسلمين فتدفقت جيوش خالد بن الوليد إلى الحديقة .

وانتابت الرعدة جسم مسيلمة الكذاب عندما نظر أمامه فوجد صفوف المسلمين تقتحم الحديقة كالطوفان ، وشعر أن نهايته آتية لا ريب فيها . فحاول أن يلوذ بالفرار بيد أن جنود خالد كانوا له بالمرصاد .

وكان من جنود خالد عبد أسود يسمى « وحشى الحبشى » وهو الذى صرع حمزة سيد الشهداء يوم أحد ، فأغمد سيفه فى صدر مسيلمة الكذاب ، وعاونه فى قتله رجل من الأنصار ، فكان وحشى يقول : « ربنا أعلم أينا قتله » فصاح رجل يقول : « قتله العبد الأسود » .

ولم تكد تنتشر الأنباء بمصرع مسيلمة الكذاب حتى دب الوهن فى جيوش مسيلمة ، فألقوا السلاح ، ومضى خالد بن الوليد فى الحديقة فرحاً بهذا الانتصار ، سعيداً بقوة رجاله ، وشرع يسأل عن مسيلمة الكذاب فأشار إلى جثته مجاعة وقال : هذا صاحبكم قد فرغتم منه فقال خالد بن الوليد : هذا الذى فعل بكم ما فعل !

وهكذا استطاع القائد المظفر أن ينتصر على قوة مسيلمة الكذاب ويستأصل جذور هذه الفتنة فى اليمامة ، ويرد المرتدين إلى الإسلام ، ويكون له القدح المعلى فى حروب المرتدين التى انتشرت فى شتى أجزاء الجزيرة العربية كالبحرين وعمان ومهرة واليمن وكندة وحضرموت ، بما أظهره من بسالة ، وأبداه من حنكة ومهارة فى تلك الحملات السالفة الذكر .

فى أرض العراق :

مد الفرس سلطانهم على العراق ، ونشروا نفوذهم بين جنباتها . وأشاعوا الفرقة بين أهلها برغم أن العراق عربى ، وقبائل العرب فى العراق

من بنى لخم وتغلب وبنى شيبان وأضرابهم يتوقون إلى منابتهم الأولى فى شبه الجزيرة العربية ونما إلى علم أبى بكر أن المثنى بن حارثة الشيبانى قد تقدم بقواته فى البحرين حتى بلغ مصب دجلة والفرات فأدهشته بسالته ، وأعجبته بطولته ، وأخذ يتتبع أنباءه إلى أن علم أن الدائرة أوشكت أن تدور عليه ففكر فى أن يرسل إليه مدداً من جنود العرب ليعزز موقفه ويقوده من نصر إلى نصر ، وهداه تفكيره إلى قائد شجاع طالما كان فارس الميدان المظفر ألا وهو خالد بن الوليد الذى قال فيه لما توالت انتصاراته : « يا معشر قريش . عدا أسدكم على الأسد فغلبه ، أعجزت النساء أن يلدن مثل خالد » .

فاستعد خالد بن الوليد للرحيل من اليمامة إلى العراق عقب أن تسلم أمر أبى بكر بالتوجه إلى العراق ، وقسم جيشه إلى ثلاث فرق . الفرقة الأولى بقيادة المثنى بن حارثة الشيبانى ، والفرقة الثانية بقيادة عدى بن حاتم الطائى ، أما الفرقة الثالثة فقد صار خالد بن الوليد فى مؤخرتها .

وقبل أن يشن خالد الهجوم وجه إنذاراً إلى « هرمز » صاحب الأبلة [١] قال فيه : أما بعد فأسلم تسلم ، أو اعقد لقومك الذمة ، وأقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة . . . »

---

(١) الأبلة : بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها بلدة على شاطئ دجلة فى زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة .

ولما تسلم هرمز هذه الرسالة طار لبه ، واضطرب قلبه ، وتملكه الرعب وهرع إلى « أردشير » ملك الفرس يلتمس النصرة والنجدة .

ولما علم أن جيوش خالد بن الوليد تواعدت على اللقاء فى منطقة « الحفير [١] » أسرع بجيوشه لاحتلال هذه المنطقة قبل أن تصل قوات خالد ، فلما نما خبر ذلك إلى خالد ، انحرف بجيشه صوب « الكواظم » لصلاحية أرضها للقتال فضيق هرمز الخناق على جيش خالد قبل أن يصل إليها ونزل بجنده « الكواظم » قبل وصول جيشه ونزل على مقربة من الماء . فلما عرف خالد بن الوليد أن جيوش هرمز واقفة له بالمرصاد لم يجد مندوحة من إلقاء جيشه فى المعمعة ، وقال لجنده « ألا انزلوا وحطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء ، فلعمرى ، ليصيرن الماء لأصبر الفريقين ، وأكرم الجنديين » .

فألقى المسلمون رحالهم فى هذه المنطقة ، وربضوا إزاء العدو يستعدون للنزال فى عزيمة ماضية ، وجأش عظيم .

ووقف هرمز فى جيشه الجرار ، بين أنصاره وأعوانه ، وهتف قائلا فى سخرية مريرة ، ولهجة آمرة : أين خالد ؟ وقصد بذلك أن يستثيره ليبارزه حتى إذا ما تمكن منه وقتله كان انتصاره على جيشه أمراً مفروغاً منه . فلم يكد يسمع خالد بن الوليد نداءه حتى خرج من بين الصفوف

---

(١) الحفير : ماء لباهلة بينه وبين البصرة أربعة أميال .

وسيفه البتار يلمع فى يديه ، تحت أشعة الشمس المشرقة ، فاشرأبت الأعناق ، وسمرت الأبصار صوب سيف الله المسلول وهو يحمل سيفه !

وأوعز هرمز إلى أميرين من بيت الملك أن يغتالا خالداً وهو يبارزه فلما التقى الفارسان ، انقض هذان الأميران على خالد وهو يصرع هرمز بيد أن رجلا عربياً باسلا يسمى « القعقاع بن عمرو » لم يمكنهما من ذلك وبادر إليهما فى جمع من الفرسان ، وهجم جيش المسلمين على جيش الفرس حتى لاذ بالفرار ، وتفرق فى البوادى والقفار .!

وهكذا انتصر العرب على الفرس انتصاراً عظيماً ، واستولوا على كثير من الغنائم ، التى أرسلوها إلى المدينة ، وكان فى جملة ما أرسلوه من غنائم « قلنسوة هرمز » وقيمتها مائة ألف دينار ، وفيل عظيم كان موضع عجب وإعجاب العرب فى المدينة .

وبينما خالد بن الوليد يقسم الفىء بين المحاربين ويرسل الأخماس إلى المدينة كان « أردشير » ملك الفرس يتأهب لمعاودة الكرة على جيوش المسلمين وعين « قارن بن قريانس » أميراً على جيوشه ، وانضم إلى قارن الأميران « قباذ » و « أنو شجان » اللذان وكل إليهما أمر اغتيال خالد غير أنهما لم ينجحا ، ولاذا مع جنودهما بأذيال الفرار . واستعد الجميع لمحاربة جيش خالد بن الوليد وشرعوا ينوون الانقضاض على جيش المثنى بن حارثة الشيبانى بيد أن خالد بن الوليد أراد أن يدرك الموقف قبل تأزمه ، وقبل أن يتفرد جيش الفرس بقوات المثنى فهرع إلى نجدته برجاله الأشداء ،

عند المزار [١] فانهزم الفرس وقتلت منهم يومئذ جموع غفيرة قدرت بثلاثين ألفاً ولولا أنهم ركنوا إلى الفرار فى السفن ، وهربوا فى عرض النهر لأفناهم جيش خالد عن آخرهم ، وغنم المسلمون منهم غنائم عظيمة حتى زاد سهم الفارس على ثلاثين ألف درهم وأخذوا الجزية من الفلاحين ، وصاروا ذمة له ، وأقام خالد بالمزار وقسم الفىء مرة أخرى بين المسلمين ونفل من الأخماس أهل البلاء ، وبعث بالباق إلى أبى بكر الصديق ، وازداد العرب رخاء وثروة على أثر هذا الفتح المبين .

مرارة الهزيمة :

طاشت هزيمة الفرس بلب الملك أردشير ، وطفق يذرع حجرات قصره جيئة وذهاباً حيران قلقاً ، وهو يفكر فى حل لإنقاذ الموقف ، وتضميد قواه الجريحة ، وتوحيد صفوفه المفرقة ، وعرف أن خالد بن الوليد قائد لا يستهان بأمره ، قوى الشكيمة ، صلب العود ، لا يمكن الانتصار عليه بسهولة ويسر ، فلا بد من مضاعفة الجهد ، والعدد ، والأسلحة والأموال .

وبينما هو مستغرق فى أفكاره طرق بابه طارق ، فتلفت صوب الباب فإذا بمائده « الأندر زغر » يدخل فى حلته العسكرية ، وفوق رأسه قلنسوة الحرب وقال :

---

(١) المزار : بين واسط والبصرة .

– مولاى إنا مستعدون .

– أرجو أن يحالفكم الانتصار فى هذه المرة .

– هذا شىء رهين بقوة خالد !

– تبًّا له من قائد ، ألا يستطيع أحد منكم أن يخلصنا منه ؟ !

– إنه كالماء ينساب من بين الأصابع . وقد وصفه الأكيدر ملك دومة فقال : « لا أحد أيمن طائراً منه ، ولا أحد فى حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً ، قلوا أو كثروا إلا انهزموا . . . »

– هل تعنى بهذا القول أن قواتنا ستهزم ؟

– كلا يا مولاى ! ولكننا لا بد أن نستخدم الحيلة ؟

– وماذا ترى !

– لا يفل الحديد إلا الحديد !

– ماذا تعنى بهذا القول ؟ !

– لا بد أن يحارب العرب العرب !

– لست أفهم ما تقول .

– إن هناك قبائل عربيـــة كثيرة تدين لكسرى ، وأكثرها من بنى بكر بن وائل وخير لنا أن نستخدمها فى محاربة خالد .

– هل أنت واثق فى ولائها .

– كل الثقة يا مولاى ، فلا يفل الحديد إلا الحديد !

واجتمعت جيوش الفرس مع قبائل العرب عند الولجة ، واستعدت

لمنازلة خالد بن الوليد . بيد أن خالداً أمر اثنين من قواده بالانفصال فى أثناء السير عنه والكمون وراء العدو حتى ينقضا عليه بجيوشهما على غرة .

وانتظر خالد بن الوليد من القائدين تنفيذ الخطة المتفق عليها ، ولكنهما تباطآ بعض الوقت ، فانقض خالد بن الوليد على الفرس انقضاضة الأسد ، فى الوقت الذى ظهر فيه القائدان خلف الأعداء ، فأصبح الفرس بين نارين ، وانهزمت صفوف الأعاجم ، ووقع فى يد المسلمين عدد عظيم من الأسرى ، كما وقعت فى أيديهم غنائم لا تحصى ، وغدا الطعام فى أيدى المسلمين « كرفغ التراب [1] » فى كثرته !

نهر الدم :

استطار فؤاد الفرس بتلك الهزائم المتوالية التى تلحق بهم ومضوا يتساءلون : ماذا يفعلون ؟ !

هذا هو خالد بن الوليد لا يدخل معركة إلا والانتصار حليفه ، وهذه هى قوات الفرس تتضاءل شيئاً فشيئاً ، وهذا هو عرش كسرى يميد ويهتز . وينذر بالويل والثبور .

فاجتمع شملهم على صلب الفرات فى منتصف الطريق بين الحيرة والأبلة وأتت الأنباء إلى خالد بن الوليد تترى فلم يتطرق إلى قلبه الخوف

---

(١) تعبير خالد بن الوليد : ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب والمقصود وفرته كالأرض الكثيرة التراب .

ونزل إلى المعركة رابط الجأش ساكن الجنان ، وما إن بدأ القتال بين الفريقين حتى وصلت الأمداد إلى جيش الفرس ، وأحس خالد أنه فى ضيق شديد ، فتوجه بالدعاء إلى ربه ، ورفع بصره إلى السماء مبتهلا وقال :

« اللهم إن لك علىّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقى منهم أحداً قدرنا عليه ، حتى أجرى نهرهم بدمائهم » .

وطأطأ خالد بن الوليد بصره فارتسمت على وجهه إشراقة النور ، وزالت تلك الكآبة التى كانت توشك أن تسيطر على أساريره ، وسار وضاء المحيا ، منشرح الصدر .

وحمى وطيس القتال ، وشن خالد هجماته على صفوف الفرس ، فخارت قواهم ، وتبدد شملهم ، وانقلبوا على أعقابهم يلوذون بالفرار ، ورأى خالد فرارهم فأمر مناديه فنادى فى رجاله « الأسر ! الأسر ! لا تقتلوا إلا من امتنع » فوقع فى أيدى المسلمين آلاف من الأسرى .

وسيق هؤلاء الأسرى إلى خالد بن الوليد كالأنعام أو كالأغنام ، ووكل بهم رجالا يضربون أعناقهم فى النهر بعد أن منع عنه الماء حتى يبر بقسمه ، وشرع رجال خالد يضربون يوماً وليلة الأعناق والنهر لا يجرى دماً فقال قوم من أصحاب خالد يخاطبونه : « لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم ، إن الدماء لا تزيد على أن ترقرق ، فأرسل عليها الماء تبر بيمينك » .

فأمر خالد بإعادة جريان الماء فى النهر ومنذ ذلك التاريخ سمى هذا النهر « نهر الدم » إشارة إلى الدماء التى سفكت فيه .

ومما يذكر أن خالد بن الوليد فاجأ الأعاجم فى موقعة « أليس » وهم يجلسون على موائد الطعام ويضعون فوقها ما لذ وطاب من المأكولات والمشروبات فلم يدعهم خالد ينعمون بطعامهم إنما أذاقهم العذاب ألواناً . فلما أدركتهم الهزيمة وقف على موائدهم يقول : « قد نفلتكموه فهو لكم » .

وجلس المسلمون إلى الموائد يتناولون العشاء ، وجعل بعضهم يتساءل عن الرقاق الموضوع على الموائد ويقول : ما هذه الرقاع البيض ، وجعل من قد عرفها يجيبهم ويقول لهم مازحاً : « هل سمعتم برقيق العيش » فيقولون : نعم . فيقول هو هذا ، فسمى بالرقاق وكانت العرب تسميه القِرّى (بالكسر) .

السفن الجانحة :

بعد أن استقر الأمر لخالد بن الوليد فى « أليس » سار بجيشه صوب « امغيشيا » وأمر بهدم الحصون والقلاع والاستيلاء على خيراتهما حتى بلغ سهم الفارس ألف وخمسمائة درهم سوى أنفال أهل البلاء ثم اتجه صوب الحيرة ، نجم فارس المتألق ، وموطن الخورنق والسدير وغيرهما من قصور الفرس فى الحيرة ومبعث حضارة الفرس فى الجاهلية والإسلام .

وقبل أن يشن خالد بن الوليد هجومه وجه نداءه إلى أهل الحيرة قائلا : « يا أهل الحيرة . اختاروا واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو القتال فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة .. »

وأمر خالد بأن تحمل السفن الرجال والأثقال والأموال ، وتتجه صوب الحيرة ، وبينما هو واقف مع نفر من الجند إذ جاءه رجل يلهث مكروب النفس متطوع النَّفَس وهو يصيح :

– أدرك يا خالد ! فالسفن جوانح .

– ترى ما الذى جنح بها .

– الفرس هم الذين جنحوا بها ؟

– وكيف كان ذلك ؟

– منعوا مياه النهر من الجريان ، وسدوا الفرات ، فسلك الماء غير طريقه !

– اذهبوا لقواد الفرس لتوكم ومروهم أن يرجعوا المياه إلى مجاريها وإلا أدركتهم الطامة الكبرى !

– سمعاً وطاعة !

– امتطوا خيولكم ! وسابقوا بها الريح !

ولم تمض إلا ساعات قليلة حتى عادت المياه إلى مجاريها ، واعتدلت السفن الجانحة ، وسارت باسم الله مجراها ومرساها ، ورضخ القواد الفرس لرأى المسلمين .

وتقدم خالد يغزوا الحصون والدور ، وبث رجاله فى كل مكان وأقام على كل قصر واحداً من قواد المسلمين ، وعهد إلى قواده أن يدعوا أهل الحيرة للتسليم فإن أبوا أجلوهم يوماً ثم قاتلوهم .

وحمل « ضرار بن الأزور» سيفه فى يده ، وصاح فى نبرات قوية جلجلت فى الفضاء .

– من أراد أن تثكله أمه فليبارزنى !

فلم يستطع أحد أن يجيبه ، فاقتحم ضرار أحد ديارات الحيرة وهو يلوح بسيفه ومن خلفه تدفقت قوات المسلمين .

فلما رأى الرهبان القسس الموت يكمن فى سيوف المسلمين صاحوا بأهل الحيرة :

يا أهل القصور والله ما يقتلنا غيركم !

ودوى النداء عالياً فى الفضاء ، فصاحت جموع أهل الحيرة : « يا معشر العرب قد قبلنا واحدة من ثلاث . فكفوا عنا حتى تبلغوا خالداً » .

وهكذا عنت الجباه لجنود خالد . وطأطأت رؤوس الفرس لقوة العرب . وسيق أصحاب القصور الضخمة الفخمة ، والأبنية الشاهقة السامقة إلى ذلك الرجل العربى الذى حضر من البادية غير أن العزم يرتسم على محياه ويغشى وجهه بهالة مشرقة من النور .

وقف خالد بن الوليد يستقبل أصحاب القصور . ويختلى بأهل كل

قصر على حدة ،ثم اجتمع بهم جميعاً وقال لهم : « ويحكم ! أأنتم عرب ! فما تنقمون من العرب ؟ ! أو عجم فما تنقمون من العدل والإنصاف ؟ ! » وكان جوابهم : « بل عرب عاربة وأخرى متعربة ! » فقال خالد : « لو كنتم كما تقولون لم تحاربونا وتكرهوا أمرنا » فأجابوا : ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا العربية . فقال خالد بن الوليد : « فاختاروا واحدة من ثلاث : أن تدخلوا فى ديننا فلكم ما لنا ، وعليكم ما علينا ،إن نهضتم وهاجرتم ، وإن أقمتم فى دياركم ،أو الجزية أو المنابذة والمناجزة ،فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة » فأجابوا : « بل نعطيك الجزية » .

ولما تم لخالد فتح الحيرة صلى صلاة الفتح ثمانى ركعات لا يسلم فيها، فلما انتهى من صلاته انطلق إلى أصحابه يقول : لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع فى يدى تسعة أسياف ، وما لقيت قوماً كمن لقيتهم من أهل فارس ، وما لقيت من أهل فارس قوماً كأهل « أليس » .

واستقر خالد فى الحيرة وجعلها مركز قيادته وإدارة حملاته وإصدار أوامره .

وأتى إليه من يخبره بأن ملوك الفرس على مرجل يغلى وأتون يضطرم .

– إن ملوك الفرس لا يطيقون رؤيتك يا خالد فى هذا المجد !

– ألا عميت أبصارهم ، فإن الأرض لله يرثها من شاء من عباده .

– ولكنهم يدبرون المؤامرات وينظمون الدسائس فى الظلام !

ـ تبًّا لهم اكتب لهم كتابين على لسان خالد بن الوليد .

ـ وماذا نكتب فى الكتاب الأول .

ـ اكتب الحمد لله الذى حل نظامكم ووهن كيدكم ، وفرق كلمتكم ، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شرًّا لكم ، فادخلوا فى أمرنا ندعكم وأرضكم ونجوزكم إلى غيركم ، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون ، على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .

ـ لا فض فوك يا خالد ! وماذا نكتب فى الكتاب الثانى ؟

ـ اكتب : أسلموا تسلموا ، وإلا فاعتقدوا منى الذمة ، وأدوا الجزية ، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر .

ـ إن من البيان لسحراً . سنرسل الكتابين الآن !

ـ شكراً ألف شكر !

ووصلت كتب خالد بن الوليد إلى ملوك الفرس غير أنهم أغرتهم كثرتهم فى « الأنبار [1] » وظنوا أنهم يستطيعون أن يردوا هجمات جيوش خالد بن الوليد بما حفروا حول مدينتهم من خندق عميق .

ووصلت طلائع خالد بن الوليد إلى الخندق ، ووقف خالد على حافته متأملا !

ـ إن هذا الخندق لن يعوق تقدمنا !

ـ وبماذا تشير أيها القائد !

---

(١) الأنبار : مدينة على الفرات فى غرب بغداد .

– لا بد أن نعبره !

– كيف ؟

– لا بد أن نختار أضيق مكان فيه .

– ها هو ذا عند الشمال .

– إذن فلا بد أن ننحر الإبل الضعيفة ونلقيها فى أعماقه حتى تملأه !

– يا لها من حيلة جبارة !

– لا تضيعوا وقتكم فى الحديث ! ميزوا الإبل الضعيفة من الشديدة واعقروها على بركة الله !

– على بركة الله نفعل ما أمرنا به خالد بن الوليد .

وعقر أصحاب خالد الإبل الضعيفة حتى طمت الخندق ، وفوقها عبرت كتائب خالد إلى الأنبار وهى تصيح مهللة مكبرة ، فتردد صيحاتها فى جنبات السماء ! وما هى إلا وقعات ضئيلة حتى استسلمت الأنبار ، ورفعت الراية البيضاء ! واستتب بها خالد ، وصالح أهلها ومن حولها !

فلما رأى الأعاجم وقوع الأنبار فى يد خالد بن الوليد لقمة سائغة تجمعوا فى « عين التمر »[1] على رأس قائد يسمى « مهران بن بهرام » صاح فى جنده قائلا :

---

(١) بلدة قريبة من الأنبار غربى الكوفة .

— هل يرضيكم ما وصل إليه ابن الوليد ؟

فرد « عقة بن أبى عقة » عليه قائلا :

— إن العرب أعلم بقتال العرب ، فدعنا وخالداً .

— صدقت ! لعمرى أنتم أعلم بقتال العرب ، وإنكم لمثلنا فى قتال العجم !

— إذن فدعنى أملك زمام القيادة ، وإن احتجتم إلينا أعناكم !

— هذا شعور منكم كريم إزاء الأعاجم !

فلما خلا (عقة بن أبى عقة) إلى بعض قواد العجم قالوا له :

— كيف تستعين بالعرب ؟ وما الذى حملك أن تقول هذا القول لهذا الكلب ؟

— دعونى فإنى لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم .

— وكيف يكون ذلك ؟

— إنه قد جاءكم من قتل ملوككم، وفل حدكم ، فاتقيته بهم ؛ فإن كان لهم الانتصار على خالد فهو لكم ، وإن لم ينتصروا عليه وهنت قواهم فقاتلناهم ، ونحن أقوى وهم مضعفون !

— هذه فكرة نيرة يا عقة ! . . . إليك زمامنا ! . . . فدافع عنا !

وجلس مهران بن بهرام فى حصنه يرقب المعركة الدائرة الرحى فى عين التمر بين جيوش خالد ، وجيوش عقة ، وفجأة وقف لاهث الأنفاس زائغ النظرات ، وهو يكتم صيحة من أعماقه ! . . .

لقد استطاع خالد أن يهزم عقة ويأخذه أسيراً ، وتنهار مقاومته فجأة . . .

وأخذ مهران بن بهرام يترقب الموت بين لحظة ولحظة . . . وعلت وجهه سحابة من الاصفرار ، وشعر أن نهايته قريبة !

ماذا يفعل مهران ؟ ! إن العدو على الأبواب ؟ ! ترى كيف ينجو ؟ ! نزل مهران إلى فناء القصر . وتنكر فى زى رجل عربى ، وتسلل من خلف الأسوار وأطلق ساقيه للريح . . .

ودخل خالد بن الوليد حصن مهران ظافراً تكلل هامته أكاليل الفخار وكان معه عقة أسيراً ، وظن أهل الحصن أن خالداً سوف يستولى على ما فيه من الغنائم ، وما هى إلا هنيهة حتى يبرحه ،ولكن خالداً ظل قابعاً فى الحصن ، فطلب منه أهل الحصن الأمان ، بيد أنه وجد أنهم يتخذون من الأمان وسيلة للغدر والانتقام ، فأبى أن يعطيهم الأمان ، وأمر قواده أن يضربوا أعناقهم جميعاً . وأن يسلموا كل ما فى الحصن من غنائم . حتى إذا ما تم له ذلك أرسل الأخماس إلى أبى بكر الصديق .

وهكذا استطاع خالد بن الوليد أن يدك حصون الفرس دكا الواحد إثر الآخر حتى يقوض عرش كسرى ، ويقضى على دولة الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد !

صاحب دومة يتملكه الرعب :

توالت انتصارات خالد فهزت قلوب الناس ، فلما شعر (أكيدر بن عبد الملك) . صاحب دومة بدنو قواته تملكه الرعب ، واستبد به الخوف ، لما لاقاه منه من شدة بأس ، وصلابة عود ، فنهض فى قومه خطيباً .

– إنى أدعوكم معشر أهل دومة إلى مصالحة خالد !

– كيف تقول هذا وأنت أمير البلاد !

– أنا أعلم الناس بخالد ! فلا يرى وجه خالد أبداً قوم كثروا أو قلوا إلا انهزموا عنه ، أطيعونى وصالحوا القوم .

ورن صوت صاحب دومة فى الفضاء بيد أنه لم يلق أذناً صاغية ، ولم تلبث الريح أن هبت عاصفة فتلاشت كلماته بين الأجواء .

ترى ماذا يفعل صاحب دومة ؟ ! إن أهله لا يريدون أن يخضعوا لخالد ، فوقف على ربوة عالية وهتف قائلا :

– لن أمالئكم على حرب خالد فاذهبوا لشأنكم !

ولم يكد ينتهى صاحب دومة من إلقاء هذه العبارة حتى تصور أن جيش خالد اللجب يوشك أن يجهز عليه ، ويزهق روحه ، فولى الأدبار ... وانطلق يسابق الريح .....

ويبصر قوم من أصحاب خالد بصاحب دومة وهو يطوى الأرض طيًّا ، فعدوا خلفه ، وأمسكوه ، وأرجعوه إلى خالد بن الوليد .

وعندما واجه أكيدر وجه خالد بن الوليد جف الدم فى عروقه . وانهارت قواه وعلم أن نهايته قريبة ! وكيف لا يكون كذلك ؟ ! وهو الذى خان عهده مع خالد فى دومة الجندل ؟ !

كانت دومة الجندل قد فتحت أبوابها لفداء أميرها . . . . غير أن أميرها خان العهد ونقض الميثاق وخرج على خالد بن الوليد ! والعين بالعين والسن بالسن والبادى أظلم ! . . . . .

وثبت أكيدر بن عبد الملك بصره نحو ثغر خالد بن الوليد ، وأخذ يترقب نفساته وكلماته وأخيراً تكلم الرجل وأمر بضرب عنقه ! جزاء وفاقاً على غدره وخيانته !

وفى الفلاة العريضة حمل السياف سيفه ، وهوى بها على رأس أكيدر ابن عبد الملك . وخلص الناس من شره وضره !

ولما علم « الجودى بن أبى ربيعة » بموت أكيدر وهنت قواه ، وكان على أهل دومة فى حين ترأس كل قبيلة زعيمها .

ولكن مصير الجودى لم يكن أحسن من مصير أكيدر إذ أصابته نقمة المسلمين ، فقتل وأراح واستراح !

واستولى خالد على الغنائم . . . واشترى خالد أجمل فتاة من السبى بهره جمالها ، وجذبته فتنتها فسأل عنها فقيل له : إنها ابنة الجودى بن أبى ربيعة فقال : دعوها لى !

معارك أخرى :

وتتابعت على أثر ذلك انتصارات خالد على الثائرين فى خنافس [١] والحصين [٢] والمصيخ [٣] ، والثنى [٤] ، والزميل ، وغيرها من البلاد ، واستطاع أن يخمد الفتن التى قامت فى العراق فى أثناء غيابه ، وبلغ « الفراض » على تخوم العراق والشام وهو يقتفى آثار الفتنة .

ولما اجتمع خالد بقواته فى الفراض اغتاظت الروم ، واهتاجت فاجتمعت جيوش للروم وللفرس وللعرب ، وكان الفرات بين الفريقين يحول بينهما فهتفوا فى خالد قائلين :

– إما تعبروا إلينا أو نعبر إليكم !

فقال لهم خالد بن الوليد :

– اعبروا إلينا !

فصاحوا : ابتعدوا حتى نعبر !

ورفض خالد أن يتزحزح جيشه عن مواطئ أقدامه وهتف قائلا :

– بل اعبروا أسفل منا !

---

(١) خنافس بلدة بالقرب من الأنبار .

(٢) الحصين موضع فى أطراف العراق من جهة الجزيرة .

(٣) المصيخ موضع بين حوران والقلت .

(٤) الثنى موضع بالجزيرة شرق الرصافة .

فعبروا النهر وهناك دارت معركة حامية الوطيس .

ووقف خالد بين الجموع هاتفاً :

ـ ألحوا عليهم ، ولا ترفهوا عنهم .

وهكذا أذاقت جيوش خالد جيوش الروم والفرس كئوس الهزيمة غداقاً وجعل صاحب الخيل يحشر منهم الزمرة برماح أصحابه ، فإذا جمعوهم قتلوهم حتى بلغ عدد القتلى منهم مائة ألف قتيل .

وبين الجثث الملقاة على الأرض ، تنزف منها الدماء ، وقف رجل بين الحياة والموت ، يلفظ أنفاسه ، فدنا منه رجل فارسى ليتبين سحنته ، عله يستطيع أن يتعرف عليه أو ينقذه ، بيد أن الرجل كان أقرب إلى الموت منه إلى الحياة ، وكان يرتدى لباس الروم ، وكانت آخر عبارة خرجت من فمه :

احتسبوا ملككم ! . . . هذا رجل يقاتل على دين ، وله عقل وعلم ، والله لينصرن ، ولنخذلن ! . . . .

ولفظ الرجل النفس الأخير . . . !

فى بيت الله الحرام :

تاق خالد عقب هذا الفتح المبين إلى مشرق الأنوار فى الكعبة وإلى تلك القبلة التى يتوجه إليها فى صلاته ليل نهار ثم إلى زيارة قبر الرسول الكريم،

فخرج فى نفر من أصحابه ينهب الأرض إلى مكة فى سر من الناس حتى بلغها وأتم فرائض الحج فيها بعدما هده طول الشقة وعظم المشقة ، ثم عاد أدراجه إلى الحيرة دون أن يعلم بمقدمه أحد من الناس .

واستمد خالد من حجه قوة روحانية كبرى يواجه بها أعداءه من جديد !

الى أرض الشام :

جمع خالد جنده ، واتجه صوب الشام فى الصحراء حتى ينازل الروم فى الشام ويدك عرشهم كما دك عرش كسرى إذ كان نفوذهم ممتداً إلى أرض الشام العربية . فعز على خالد أن تظل تلك البقاع تحت نير الروم .

وكان خالد بن سعيد فى تلك الآونة يجاهد فى أرض الشام ضد قوات الروم . ولا يتقدم فيها إلا بشق الأنفس ، فكتب إلى أبى بكر يلتمس المدد فعقد ألوية أربعة من كبار القواد وهم أبو عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص ، ويزيد بن أبى سفيان ، وشرحبيل بن حسنة .

وفجأة لمع اسم خالد فى ذهن أبى بكر وقال على مسمع من الناس : « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » فكتب إليه أن يتوجه صوب الشام . ليشترك فى تلك المعركة الكبرى ضد الروم ، ولتخليص أرض الشام من ربقة الاستعباد .

سار خالد فى وحشة الصحراء ووحدتها مع جنده ، وكان اعتمادهم بعد الله على دليلهم ، وقضوا فى سفرهم خمسة أيام ، وكان الرجال ينزلون كل يوم ليأكلوا ويشربوا وليشقوا بطون عدد من الإبل التى اتخذوها صهاريج لحفظ الماء وتقديمه إلى الخيل ، حتى انفجر لهم فى البيداء نبع ماء فشربوا منه حتى ارتووا .

وظل جيش خالد بن الوليد ينهب الفلاة نهباً حتى وصل إلى اليرموك وكان جيش المسلمين فى ذلك الوقت يبلغ ستة وثلاثين ألفاً ، فى حين زاد عدد جيش الروم على مائتى ألف مقاتل !

وكان وصول خالد إلى اليرموك فى الوقت الذى وصل فيه باهان قائد الروم الذى عينه هرقل على الجيش بعدما هزم خالد بن سعيد .

فارتاح الروم لهذه القيادة ، ورحبوا بهذا القائد ، بيد أن خالد بن الوليد كان لهم بالمرصاد ، فوقف بين قواد جيشه يقول :

ــ هلموا فلنتبادل الإمارة ، فليكن بعضنا اليوم والآخر غداً ، والآخر بعد غد ، حتى تتأمروا كلكم ! . . . ودعونى أتأمر اليوم !

ولم يكد خالد ينتهى من إلقاء هذه العبارات حتى علا التهليل والتكبير وصاح القواد .

ــ لقد أمرناك ، فمر بما ترى !

ولم يكد يتسلم خالد بن الوليد إمارة الجيش حتى قسمه إلى قلب وميمنة ، وميسرة ، وجعل أبا عبيدة على القلب ، وابن العاص وشرحبيل

على الميمنة ، وابن أبي سفيان على الميسرة ، وجعل على كل فيلق من الجند رجلا من القادة الشجعان الذين لا يهابون الموت .

وعهد خالد إلى أبي سفيان بمهمة القاص فكان يتنقل بين الجنود ويقول : « الله ! الله ! إنكم ذادة العرب ، وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم ، وأنصار الشرك ، اللهم إن هذا اليوم من أيامك ! أنزل نصرك على عبادك ! » .

وسمع خالد بن الوليد رجلا يقول : « ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! » فغضب منه أشد الغضب ،وأنكر عليه أن يتفوه بمثل هذا القول ،وصاح فيه قائلا : « بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين ! إنما تكثر الجنود بالنصر ! وتقل بالخذلان . . . » ! ! !

التحم جيش العرب مع جيش الروم وتطارد الفرسان ، وخرست الألسنة وصمت الآذان إلا عن قعقعة السيوف ، وصهيل الخيول ، و زئير الفرسان وكان على قلب جيش الروم قائد يسمى (جرجة) خرج بين الصفوف ونادى ليخرج إليه خالد . فلما خرج إليه طلب منه أن يؤمنه ليتحدث إليه ، فأمن كل منهما صاحبه ومضى جرجة يقول :

ــ يا خالد اصدقني ولا تكذبني ! فإن الحر لا يكذب . ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل .

ــ تكلم ماذا تريد أن تقول ؟

ــ بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاه لك فلا تسله على قوم إلا هزمتهم .

ــ كلا !

ــ فيم سميت سيف الله ؟ !

ــ إن الله عز وجل بعث فينا نبيه صلى الله عليه وسلم فدعانا ، فنفرنا عنه ، ونأينا عنه جميعاً ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه وبعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه ، فقال : أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين ، ودعا لى بالنصر فسميت سيف الله بذلك ، فأنا من أشد المسلمين على المشركين .

ــ أخبرنى إذن يا خالد إلى ما تدعونى ؟

ــ إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله والإقرار بما جاء به من عند الله .

ــ ومن لم يجبكم ؟ !

ــ الجزية ، ونمنعهم .

ــ فإن لم يعطها ؟

ــ نؤذنه بحرب ثم نقاتله .

ــ فما منزلة الذى يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم .

ــ منزلتنا واحدة .

– هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل مالكم من الأجر والنصر .
– نعم وأفضل !
– وكيف يساويكم وقد سبقتموه .
– إنا دخلنا فى هذا الأمر ، وبايعنا نبينا صلى الله عليه وسلم وهو حى بين أظهرنا . تأتيه أخبار السماء ، ويخبرنا بالكتب ، ويرينا الآيات ، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع ، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج فمن دخل فى هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا .
– إذن فعلمنى الإسلام ! !

ومال جرجة مع خالد بن الوليد ، فظن الروم أنه فى حاجة إلى المدد فانقضوا على المسلمين ، وأزاحوهم عن مواطن أقدامهم .

وكان عكرمة بن أبى جهل يدافع دفاع المستميت فى جيش خالد بن الوليد فلما وجد تراجع المسلمين وتقدم الروم ثارت الحمية فى عروقه وصاح فى وجه الروم ، قاتلت مع رسول الله فى كل موطن ، وأفر منكم اليوم ! وانقلب إلى أصحابه ينادى : « من يبايع على الموت » فبايعه نفر كثير من جند المسلمين فعادوا وانقضوا على جيش الروم انقضاضة رجل واحد .

وفى هذه اللحظة حمل خالد بن الوليد سيفه ، وانقض على عدوه ، يقصف الرقاب ، ويقطع الهامات ، ويطوح بالرؤوس .

وفر جيش الروم إزاء هجمات خالد ، ومن خلفه جنوده الأبطال

وجرح فى هذه المعركة عكرمة بن أبى جهل ، فوضع خالد رأسه على فخذه ، وجىء بولده عمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه وجعل يمسح على وجوههما ويقطر فى حلوقهما الماء .

واشتركت النساء فى هذه المعركة ، وكان لهن نصيب مشكور فى هذا النصر ، إذ كن يقمن بسقى الماء ، ومداواة الجرحى والمرضى ، واستنهاض الهمم وإثارة الحماس فى جيش خالد ، فاندفع الجند إلى المعمعة حتى تم لهم النصر المؤزر المبين .

وفقد خالد بن الوليد فى يوم اليرموك قلنسوته فقال: اطلبوها ، فلم يجدوها ، فلم يزل حتى وجدها ، فإذا هى خلفه ، فسئل عن ذلك فقال :

« اعتمر النبى صلى الله عليه وسلم فحلق شعره ، فاستبق الناس إلى شعره ، فسبقت إلى الناصية فأخذتها ، فاتخذت قلنسوة ، فجعلتها فى مقدم القلنسوة ، فما وجهته فى وجه إلا وفتح له » .

وجاء البريد من المدينة بوفاة أبى بكر ، وعزل خالد عن الإمارة وتولية أبى عبيدة ، وأسرّ حامل البريد فى أذن خالد بن الوليد ، فحمد له رأيه واستحسنه ولم ترتسم على وجهه أى أمارة من أمارات الغضب ثم التفت إلى أبى عبيدة وقال : مر لى يا أميرى ! فأنت قائد العرب !

والتفت خالد بن الوليد مرة أخرى إلى حامل البريد وقال : بلغ أمير المؤمنين أن من حقه أن يعزلنى عن القيادة ولكنه لا يملك أن يجردنى من سيفى ، فسأظل حاملا هذا السيف حتى أموت !

وانخرط القائد المغوار خالد بن الوليد فى جيش أبى عبيدة بن الجراح جنديًّا من جديد . . . !

ويبدو أن عمر بن الخطاب عزل خالداً لأنه كان إذا صار إليه المال قسمه بين أهل الغنائم ولم يرفع إلى أبى بكر حساباً ، كما قتل مالك ابن نويرة وتزوج أرملته ليلى بنت سنان ، وقال عمر لأبى بكر : اكتب إلى خالد لا يعطى شيئاً إلا بأمرك ، فكتب إليه ذلك فأجابه خالد : إما أن تدعنى وعملى ! . . وإلا فشأنك بعملك ! فأشار عليه عمر بعزله ، فقال أبو بكر فمن يجزى عنى جزاء خالد .

فلما تولى الخلافة عمر بن الخطاب كتب إلى خالد أن لا تعطى شاهاً ولا بعيراً إلا بأمرى ، فكتب إليه خالد بمثل ما كتب إلى أبى بكر فقال عمر : ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبى بكر بأمر فلم أنفذه ! وأمر بعزله !

ولهذه الأسباب ولغيرها مما أفاض فى ذكرها المؤرخون عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد .

وجاءه خبر العزل ، فلم يحرك منه ساكناً ، إنما ظلت ابتسامة الظفر ترتسم على شفتيه . ولم تكن قد مضت أيام على تسلم أبى عبيدة رسالة أبى بكر « أما بعد فإنى وليت خالد بن الوليد قتال الروم فلا تخالفه واسمع له وأطع أمره فإنى وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه ولكن ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك ، أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد » .

ولم تكن قد مضت أيام كذلك على رسالة خالد إلى أبي عبيدة « أما بعد فإنى أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف ، والعصمة فى دار الدنيا ، فقد أتانى كتاب خليفة رسول الله يأمرنى بالمسير إلى الشام وبالمقام على جندها والتولى على أمرها ، والله ما طلبت ذلك ولا أردته ولا كتبت إليه فيه ، وأنت رحمك الله على حالك التى كنت بها لا يعصى أمرك ولا يخالف رأيك ولا يقطع أمر دونك فأنت سيد من سادات المسلمين لا ينكر فضلك ولا يستغنى عن رأيك . . . »

سلاماً عليك يا سوريا :

ارتعد هرقل أمام هذه الانتصارات الباهرة لجيش خالد بن الوليد ، فعول على أن يبرح حمص ودمشق بعد أن ينصب الأمراء عليهما ، مخافة أن يدركه جيش خالد فى الشام فيهلكه ويقضى عليه قضاء مبرماً .

فنظر إلى قباب دمشق . ورياضها وأرباضها . . . وتأمل حمص . . . وبقاعها . . . وبطاحها . . . ثم نبس بوداعه الأخير :

— سلاماً عليك يا سوريا ! سلاماً لا لقاء بعده !

وسار خالد بن الوليد مع أبى عبيدة بن الجراح حتى وصلا دمشق، ولم تجد جيوشهما مقاومة تذكر ، وكان أهلها قد هجروا ديارهم إلى أسوار المدينة ، فألفى المسلمون الدور والقصور خاوية على عروشها ، واستطاع المسلمون اقتحام الأسوار وقتل الأحراس ، وقطع خالد ومن معه أغلاق الباب

بالسيوف ، فاندفع المسلمون على جيوش الروم قتلا ، ونشروا الرعب والفزع فى قلوب الروم حتّى استسلمت المدينة وصالح أهلها أبا عبيدة ، وأصدر أوامره إلى خالد بإيقاف القتال وسفك الدماء .

وسار خالد بن الوليد بعد ذلك إلى فحل وهى جنة الروم فاستولى عليها وكان أبو عبيدة بن الجراح قد نصبه فى مقدمة الجيش فأبلى بلاءه المشهود فى القتال ، وألقى بجيوش الروم فى الرمال والأوحال ، وهزمهم هزيمة منكرة .

وتوجه خالد بن الوليد على أثر ذلك إلى حمص لمحاربة أميرها وكان هرقل ملك الروم قد أصدر أوامره إلى هذا الأمير ألا ينازل المسلمين إلا فى يوم شديد البرد حتّى لا يقووا على القتال .

فلم تحجم قسوة الجو ، ولم يرد زمهرير الشتاء خالد بن الوليد عن تنفيذ خطته . فحاصرها المسلمون وشددوا عليها الحصار حتّى إذا ما ذهب الشتاء طلبوا الصلح فصالحهم المسلمون .

وتتابعت بعد ذلك انتصارات خالد فى الحاضر وقنسرين وغيرهما من مدن الشام .

واهتز عرش هرقل ملك الروم كما اهتز من قبله عرش كسرى ملك الفرس !

خالد بن الوليد على فراش الموت :

اشتدت العلة بخالد بعدما حدث من الغير ، وطرأ من الخطوب ، فرقد على فراش الموت تنهكه العلة ويسهده الألم .

والتف حوله أصحابه ومريدوه وهو زائغ النظرات ، ناضب الشفاه ، ذاهب اللون ، ثم ما لبث أن قال : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما بقى فى بدنى شبر ، إلا وفيه ضربة سيف ، أو طعنة رمح ، ثم أموت على فراشى هكذا كما يموت البعير . . . لا نامت أعين الجبناء . . ! »

لقد كان خالد يتمنى أن تعاجله المنية فى ساحة القتال ، أو حومة الوغى ، ولكن يشاء الله تعالى أن تكون ساعاته الأخيرة على هذا الفراش !

وحوم الموت فوق رأس خالد بن الوليد ، ورفرف بأجنحته عليه ، فاضطربت أنفاسه ، وتحشرجت كلماته بيد أنه التقط أنفاسه اللاهثة وشرع يقول :

– لقد طلبت القتل فى مظانه ، فلم يقدر لى إلا أن أموت على فراشى ، وما من عملى شىء أرجى عندى بعد لا إله إلا الله من ليلة بتها وأنا متترس ، والسماء تهلنى بمطر إلى صبح حتى نغير على الكفار . . . !

ولم يكد يلفظ خالد بن الوليد بهذه الكلمات حتى تلاشت أنفاسه ، وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها . . . .

وانفجر الجميع باكين . . . حتى شرقوا من الدموع ! . . . . وخرج الناعى ينعى للملأ وفاة خالد بن الوليد . . .

ولم تمض ساعات حتى كان المشيعون يشيعونه إلى مقره الأخير بين الأنات والحسرات والعبرات . . .

وقيل لم تبق امرأة من بنى المغيرة إلا حلقت رأسها ووضعت شعرها على قبره . . . .

ولما سمع عمر بن الخطاب بوفاته اشتد جزعه ، لأنه كان يعلم أنه مهما اختلف مع خالد فى وجهات النظر فإن هذا لا يغض من فضله أو يقلل من قدره . . .

وقيل إن خالداً أوصى إلى عمر فتولى عمر وصيته ، وسمع أحدهم يذكر خالداً فقال : رحم الله خالداً . فقال له طليحة بن عبد الله .

لا أعرفنك بعد الموت تندبنى وفى حياتى ما زودتنى زادى !

رحم الله خالداً فقد كان قائداً لا يعوض !

أشهر المراجع

١ ـ تاريخ الأمم والملوك للطبرى .
٢ ـ السيرة النبوية لابن هشام .
٣ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد .
٤ ـ الإصابة لابن حجر العسقلانى .
٥ ـ أسد الغابة لابن الأثير .
٦ ـ المغازى للواقدى .
٧ ـ الكامل فى التاريخ لابن الأثير .
٨ ـ دائرة معارف البستانى .
٩ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه .
١٠ ـ المعارف للواقدى .
١١ ـ الصديق أبو بكر لمحمد حسين هيكل .
١٢ ـ الفاروق عمر لمحمد حسين هيكل .
١٣ ـ سيف الله خالد بن الوليد لأبى زيد شلبى .
١٤ ـ سيف الله خالد للصاغ محمد فرج .
١٥ ـ تاريخ الإسلام السياسى للدكتور حسن إبراهيم حسن .

رقم الإيداع	١٩٩٧/٢٥٩٩	
الترقيم الدولى	977-02-5366-9	ISBN

١/٩٧/١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)